روايات احلام

الوهم الأسير

الوهم الأسير

. أنا مخطوبة لشيكتور سبنسر!

كانت هذه كذبة بسيطة من زاندرا لتنقذ نفسها من موقف محرج... وما همّها طالما لن يعرف أحد بهذه الكذبة، وخصوصاً... شيكتور!

...لكنه عرف، وعرف هذا بأصعب طريقة: وقبل أن يستيقظ من ذهوله وجد نفسه متورطاً... وهكذا واجهت زاندرا رجلاً غاضباً تعرف أنه لا يطيقها كما لا تطيقه هي، فكيف سيتخلص شيكتور من هذه الورطة؟ وهل يرغب فعلاً بأن يتخلص؟

١ ـ خطيبها رغماً عنه

كانت الرحلة رائعة.. وحطّت الطائرة المملاقة على أرض لندن وسط طقس جيد، مع أنه بارد... ولعلها شعرت ببرودته بعد شمس أوستراليا الساطعة.. لكنه مقبول، فهذا أفضل بكثير من طقس تشرين الثاني البارد الذي تركوا فيه لندن قبل أسبوع.

أما بالنسبة لزاندرا رودس فلم يكن هذا الطقس أفضل من طقس تشرين الثاني، وعلى الرغم من جميع محاولاتها لازمها إحساس بالاكتئاب لم تستطع رفعه رغم كل محاولاتها منذ أقلعت الطائرة بهم من أوستراليا.

نفذت، آلياً، المهام الموكلة إليها بدقة.. فكانت لطيفة وعوناً لكل الركاب.. إلاّ أن طبيعتها الحساسة كانت تشكل قناعاً للألم في داخلها.. حاولت جاهدة أن تبعد أندرو بوغت عن أفكارها، ولكنها رغم محاولاتها لم تستطع محو وجهه من خيالها.. كيف أخطأت بحكمها عليه؟

عندما تراءى أمامها مرة أخرى وجهه الوسيم، اتخذت عيناها مظهر من يشعر بألم وعذاب لأنها حسبته مخلصاً وصادقاً.. فما بينهما لم يكن مجرد انجذاب عابر بل كانت مؤمنة أن علاقتهما عميقة ذات معنى. نعم لا تنكر أن أندرو لم يطلب يدها للزواج ولكنه أمر كانا متفقين أو شبه متفق عليه.. أو هذا ما ظنّت.

عضت زاندرا شفتها السفلى بغضب، وغرقت في ذكرياتها... لذا اصطدمت بضباط الطائرة الذي لم تنتبه إليه، وعندئذ انقطعت ذكرياتها خاصة وهو يقول بصوت جاف: «هلا ابتعدت عن طريقي رجاءً.. أود

المرور».

أدركت زاندرا أنها ظلت واقفة بالباب على الرغم من توديعها لآخر راكب.. كان هنالك مكان يكفيه ليحشر جسده فيه ليمر ولكن نظرة وجهه وعينيه اللتين حدقتا إليها أكدتا لها أنه لو استطاع لما اقترب منها ولو على بعد عشر ياردات.. وهذا غريب لأنها بحسب آراء جميع الرجال امرأة جذابة.

تنحّت جانباً وقد ارتفع الاحمرار إلى وجنتيها.. لم يعجبها هذا الرجل قطّ..

تحرك ڤيكتور سبنسر، وكأنه يريد العبور من الفتحة لينزل السلم، لكنه توقف ونظر إليها:

ـ نصيحة لك رودس..

هكذا كان يناديها كلما أراد أن يمرر لها نصيحة، وهي على أي حال لا تذكر يوماً أنه قد ناداها باسمها الأول.

ـ تعلمي كيف تديرين حياتك العاطفية.

تحول اللون الوردي في وجنتيها إلى لون قرمزي فقد أصاب منها وتراً حساساً..

ـ كيف عرفت...

قفزت الكلمات من فيها قبل أن تدرك أنه لا يعرف شيئاً عن حياتها العاطفية وإنما استنتج ذلك استنتاجاً.

أجاب: «كيف عرفت؟ يجب أن أكون أعمى لئلا.. دعك من هذا رودس.. إن كنت عاجزة عن إدارة حياتك العاطفية جيداً، فليكن عندك على الأقل حسن خلق لئلا تضجرينا جميعاً بمآسيك».

طارت كل تدريبات زاندرا أدراج الرياح عندما فتحت فمها لترد بغضب شرس.. ولكن قبل أن تخرج منها كلمة واحدة، نزل ڤيكتور سبنسر الدرج وتوجه نحو المدرج.

آه!.. كم تكرهه! من يحسب نفسه؟ إن مهارته وكونه طياراً في

«كرونويل ايرلاينز» لا يعطيه الحق أن يكون فظاً سيء المزاج.. ليت حياتك العاطفية تسوء في يوماً ما، أيها الكابتن ڤيكتور سبنسر! وأحست بالعجز لأن هذا لن يكون أبداً. فهو ليس قادراً فقط على السيطرة على أية طائرة يطير بها، بل هو قادر على إدارة أية أزمة عاطفية قد تمر بحياته.. تعرف أنه أقسى وأقوى من أن يترك للعواطف تأثيراً في حياته.

مآسيك.. حقاً! قد تفهم سبب تعليقه السليط لو أنها رمت بذراعيها، أو أغمي عليها، أو انهارت باكية كلما كلمها أحد.. ولكنها لم تقم بأي فعل من هذا.. بل مارست عملها بكفاءة وهدوء كما تدربت. فكرت بؤس: ليتك تتعرض يوماً لمأساة.. ثم ما لبثت أن ارتدت لترى صديقتها وزميلتها المضيفة ماغي لينسلايد التي جاءت لتنضم إليها في مطبخ الطائرة.

سألتها ماغي: «هل أوشكت على الانتهاء؟ يا إلهي ما أشدّ تعبي!»

سألتها زاندرا:

ـ هل بدوت مختلفة أثناء هذه الرحلة؟

ـ مختلفة..؟ لا.. لا أظن هذا.. كنت هادئة لكنك أصلاً لست شخصية صاخبة... أليس كذلك؟ لماذا السؤال؟

ـ أوه.. لا شيء.. السبب كلام قاله ڤيك سبنسر، هذا كل شيء.

ضحكت ماغي بطريقة معدية:

ـ آها.. إذا كان عندك ما هو مختلف فثقي أن سبنسر صاحب العين الثاقبة قادر على ملاحظته.. أنت بخير.. أليس كذلك؟ أعني هل من خطب؟

أجابت: «لا..».

ثم أدركت أن من الأفضل أن تسمع ماغي القصة منها على أن تسمعها من أي شخص آخر. فالمرء لا يستطيع إخفاء أموره الخاصة ضمن مجموعة كرونويل.

ـ أنا.. و.. أند.. أندرو.. انفصلنا.

- زاندرا.. أنا آسفة!

تعرف أن صديقتها واقعة رأساً على عقب في حب أندرو يوغت.. مع أنه، وحسب رأيها، لا يناسبها، ولا يصل إلى المستوى اللائق بها، إلا أنها لم تستطع إلا أن تشعر بالأسى على الألم الذي تحسه زاندرا.. بدت ماغي مرتبكة بسبب فكرة عنّت على بالها..

- ليس لانفصالك عن أندرو علاقة بما قلته لي.. أليس كذلك؟

- بالتأكيد، لا علاقة له.

ثم، لم يعد هناك وقت للمزيد من الحديث، فقد حضر رجال الجمارك والأمن العام لأخذ الجوازات وليتفحصوا المخازن والأوراق، وخرجت زاندرا أخيراً إلى موقف سيارات الموظفين دون أن تزيد كلمة أخرى لماغي.

لقد قالت لماغي أن لا علاقة لانفصالها عن أندرو بأي شيء قالته لها.. لكن لو لم تحذرها ماغي بقولها: «احذري مما قد يواجهك يا بطتي» وذلك عندما كانت تهم بإمضاء إجازة الأسبوع مع أندرو، لما جاء الانفصال بهذه السرعة.. واعترفت زاندرا أن عليها أن تكون شاكرة لماغي.. فملاحظة ماغي العفوية أنقذتها من بلاهتها.

كانت تنتظر عطلتها بشوق جعلها ترغب في اطلاع أحد عليها، وماغي هي الشخص الطبيعي. ولكن قولها العفوي: احذري مما قد يواجهك يا بطتي! زرع بذور الشك الأولى في براءة نهاية الأسبوع تلك.

كانت قد قالت لماغي:

- آه! لا.. ليس الأمر كما تظنين.

لكن ماغي لم توافقها الرأي منذ تلاشت البسمة عن وجهها:

- زاندرا.. أنت ساذجة بشكل واضح.

وانهدت بيأس.. فتمتمت زاندرا مجدداً:

- إنما لن يكون الأمر هكذا.. فأندرو..

قاطعتها ماغي بحدة:

- اسأليه.. اسأليه فقط زاندي.

لكنها لم ترغب في طرح أي سؤال عليه.. قد تظنها ماغي ساذجة، أما هي فلا تظن نفسها ذلك.. أوه.. إنها تعرف أن بعض الفتيات قد يذهبن مع رجل ويدعيان أنهما زوجان.. لكنها تخرج مع أندرو منذ وقت طويل، وهو يعرف أنها لا تستطيع أن تكون هكذا.. وقد فهم أنها تصدّه كلما تجاوز غزله حدود العناق.. في البداية حار أندرو بأمرها ولكن عندما عرف أن لا سبيل لتجاوز هذا، تقبله، أو هذا ما كانت تظنه، ودعاها بفتاته الحلوة الرجعية.

ولأنها ظنت أن عطلة الأسبوع التي ستمضيها معه في ويلز ستكون بريئة كما كانت أصلاً تظن قبل أن تزرع ماغي بذرة الشك في رأسها، استجمعت شجاعتها لتسأل أندرو وكانت تظن أنه سيضحك منها، ولكن عالمها انهار من حولها.. أحست بالصدمة حين لم يجد سؤالها مسلياً أو مضحكاً.. لقد بدا مذهولاً، متفاجئاً ولكنه لم يبدُ قطعاً متسلياً.

قال وكأنه يشك في أنه سمع قولها:

- لست جادة زاندي؟ آه! حباً بالله.. أتعتقدين حقاً أن العطلة ستكون رحلة مدرسية؟

لاحظ شحوب وجهها فسارع يقول:

- سيكون كل شيء على ما يرام حبيبتي.. سنكون حذرين.. وسنمضي وقتاً هائلاً.. صدقاً.

تقدّم ليعانقها ولكنها تجنبت ذراعيه.. فعليها أن تفكر بصفاء.. أسوأ ما في الأمر أنها تريد أن تذهب. ولكنه يتعامل مع الأمر بخفة.. ألا يعرف أنها لا تستطيع تقديم مثل هذا الارتباط؟ ألم يفهم أن هذا شيء أساسي عندها؟ لقد ظنت أنهما مقربان كثيراً، مع ذلك، ها هي تشك في صدقه. فطالما صرح لها عن حبه، ولكنها، فجأة وجدت أنها تشك في كلمات الحب تلك.. ثم أرادت أن تختبره من كل هذا، وعرفت أن أندرو يوغت لم يحب قط أحداً غير نفسه، وأن الهدف من عطلة الأسبوع معه ليس

المزيد من التعارف.. صحيح أنهما قضيا أوقاتاً سعيدة إنما تبين لها في تلك اللحظة أنه لن يفتقدها حقاً لو خرجت من حياته إلى الأبد.. أما هي..

ـ أنا آسفة أندرو.. لا أستطيع المجيء معك.

أجاب بتملق:

ـ لا تكوني جبانة حبيبتي.. إذ يحدث هذا بشكل طبيعي كلما ذهب حبيبان في عطلة ما.

أحست بوجهها يتجمد وصدمها معنى كلامه. ظنّت أنها وأندرو مختلفان.. وقرأ أندرو في تعابير وجهها أنها لن تتزحزح عن رأيها، فاختفت الابتسامة عن وجهه وقال ساخراً:

ـ لن تبقي عذراء طوال عمرك.

قضت كلماته على كل ذرة شك في نفسها.. كان يجب أن تغضب، أن تضربه، ولو ليس بيديها فعلى الأقل بلسانها، ولكنها لم تفعل شيئاً.. لأن كل ما شعرت به هو شعور بالغثيان، وهربت قبل أن يرى ما فعلته كلماته بها.

في طفولتها كانت تؤثر فيها الخلافات العائلية كثيراً وكانت تمرضها جسدياً، فرهافة إحساسها كانت تؤثر كثيراً في معدتها.. وقد ظنت أنها كبرت على مثل هذا وأنه توقف عن الحدوث بعد طلاق والديها وذهابها لتعيش مع عمتها.. لكن بعدما وصلت إلى شقتها وبعدما تأكدت من أن كل ما بينها وبين أندرو ولى، عرفت أن علة طفولتها وعوارضها ما زالت تتملكها. وصلت إلى الحمام في الوقت المناسب. وخرجت من الحمام لتستلقي على سريرها، وتجبر تفكيرها على محو ذلك الموقف مع أندرو.

إن ما تحتاج إليه بالضبط هو العمل. ولكن وللصدف ألغيت عطلتها الأسبوعية بسبب إصابة عدد من المضيفات بتسمم غذائي.

كان لا بد أن يكون الكابتن فيكتور سيتسر هو المسؤول عن الرحلة إلى أوستراليا.. رددت زاندرا غاضبة وهي تتجه من المطار إلى شقتها: فيك

سيتسر.. لا بد من وجود علّة ما في حياة كل إنسان.. وكان هو العلة في حياتها.. فمنذ أن بدأت العمل وهما لا يتفقان. ولكن ذلك ليس سبباً ليتصرف معها بهذه الفظاظة. لقد قالت ماغي إنها كانت هادئة ولكنها لم تكن هادئة أكثر من المعتاد، وهي لا تريد أن يكون فيك سيتسر على حق.. بل تريد أن تخرجه من أفكارها.. وألا تفكر فيه مرّة أخرى.

أحست بالسرور لوصولها إلى شقتها، فأوقفت سيارتها ودخلت لدى كوليت، التي تسكن في الطابق الأول، مفتاح إضافي، ولسوف تنزل فيما بعد لتراها.. خلعت سترة بدلة عملها الزرقاء القاتمة ثم خلعت الحذاء، وتمطت متعبة متجهة إلى الحمام.. سرعان ما ملأت المغطس بالماء لتنقع جسدها المتعب مدة عشر دقائق.. لكن قبل أن تصل إلى هناك، رن جرس الهاتف في غرفة الجلوس.. تبادر إلى ذهنها أن يكون المتصل أندرو مع أنه احتمال بعيد المدى.. ولم يكن.. بل هي العمة إليس..

ـ لم أسمع أخبارك عزيزتي.

تحب زاندرا عمتها كثيراً، وكانت على وشك أن تقول لها إنها وصلت للتو لولا أن سارعت العمة إلى متابعة كلامها:

ـ وكيف حال صديقك؟

يا إلهي! لقد نسيت أنها قالت لعمتها كل شيء عن «الصديق الدائم».. كانت متأكدة من حبه الذي اعتبرته مقدمة لطلب يدها وها هي الآن غير مستعدة لتقول لها إن ذلك الحب انتهى، ولكنها أجابت على سؤالها متجنبة قول أي شيء يكدّر العمة.. مهما كان ردها فقد أرضى عمتها التي تابعت بصوت دافيء مليء بالحب:

ـ ألم يطلب يدك؟

ونزل سؤال العمة نزول الصاعقة على زاندرا التي تذكرت أنها تركت حنفية ماء الحمام مفتوحة، وإن لم تسارع إلى إقفالها فستغرق شقة كوليت.. فجأة شعرت بالصدمة والخوف لأنها ردت على سؤال عمتها

«بنعم» ولكنها لمّا فتحت فمها بسرعة لتنفي ذلك التصريح أسرعت عمتها ترد بصوت ملؤه الغبطة:

ـ أوه.. حبيبتي.. أنا مسرورة لأجلك! ليس في الكون امرأة أسعد مني؟ متى الزفاف؟

أصيبت زاندرا بالذعر بسبب الفرحة العارمة التي استولت على عمتها.. ولم تستطع إخراج الكلمات التي ستنفي فيها خبر تركها أندرو من فمها. كانت العمة تعتقد أن زاندرا ستبقى عانساً لأن ذلك النتيجة المباشرة للصراع الذي عاشته مع والديها قبل الطلاق منذ ثماني سنوات.. ولهذا تبدو مسرورة فهذا يدل على أن الخلافات العائلية التي كانت تدور بين أمها وأبيها لم تؤثر فيها بالقدر الذي تظن.

وعت زاندرا أن عمتها تسألها عن اسم الرجل.. فأجابت مترددة:

ـ أنا.. حسناً.. يجب أن أنهي المكالمة عمتي.. سيفيض الماء في حوضي.

ـ حسناً يا عزيزتي.. أعرف أنك تريدين الذهاب لتجمّلي نفسك من أجل فتاك الشاب.. أيعمل معك؟

ـ أ.. أجل..

وهذه زلة لسان أخرى..

وتمنّت لو تصارح عمتها بما حدث بكل صدق.. عمتي العزيزة.. لماذا أنا جبانة هكذا حين يصل الأمر بي إلى جرح مشاعرك؟ لماذا لا أستطيع مصارحتك بأن كل شيء انتهى؟ لكنها لن تستطيع.. كيف ذلك وعمتها على هذه الدرجة من السعادة؟

قالت أليس سمولبورن التي ذكرتها بلطف: «لم تذكري لي اسمه عزيزتي!»

أسمه؟ فتشت زاندرا عن اسم تذكره لعمتها فقالت عن غير وعي: «ڤيك سبنسر».

عندئذ طلبت منها العمة بحبور أن تذهب لتستحم.

في هذا الوقت تعالى رنين الهاتف فهرعت إليه وهي تفكر مذهولة: أقالت ڤيك سبنسر حقاً؟ لا.. لم تقل هذا.. لا يعقل ذلك.. ما الذي تملكها؟ يا الله!.. لكنها لم تتمالك نفسها عن الابتسام.. كم سيحب هذا.. ڤيك سبنسر الضخم، القوي، سيسره أن يعرف أن الفتاة التي يظنها سيئة الطباع، دراسية، غير قادرة على تدبر أمر حياتها العاطفية، ادّعت للتو أنه خطيبها.

أمام زاندرا ثلاثة أيام من الراحة قبل أن تسافر مجدداً.. ثلاثة أيام عليها خلالها أن تتصل بعمتها لتعترف لها أنها لا تعرف ڤيك جيداً.

اتجهت يدها أكثر من مرة لتطلب رقم هاتف عمتها.. وحدث أن اتصلت بها فعلاً مرة، لكنها أعادت السماعة مكانها وهي تحس أنها على وشك الإغماء.. ثم حاولت أن تكتب لها، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات المناسبة لذلك.

في آخر يوم راحة لها، قررت أن تذهب بنفسها إلى «ميدلاين» لتقول ما تريد لعمتها وجهاً لوجه.. لكن الوقت متأخر الآن.. لكن سوف تضع هذه المسألة في سلم أولياتها بعد عودتها من مهمة الطيران التالية.. ولن يكون الأمر سهلاً فعمتها ستتألم كثيراً..

أدركت للمرة الأولى مدى القلق الذي تعيشه عمتها بسببها أي بعد سنتين من العيش معها.. كانت قد عادت إلى المنزل بعد حفلة راقصة مع نورني كراين وهو شاب لا يكبرها إلا قليلاً.. استمتعت بأمسيتها، وبعدما ودعته دخلت إلى غرفة الجلوس فرأت عمتها فيها وهذا غريب لأن العمة تأوي إلى فراشها في العاشرة والنصف.

ـ ألم تنامي عمتي؟

ـ خلتك ستدعين صديقك الشاب لاحتساء القهوة.

ضحكت زاندرا: صديقي الشاب.. عمتي! لم أخرج معه إلا مرة واشك أن أخرج معه مرة أخرى.

لأن نورني كراين سيسافر إلى الجامعة في اليوم التالي. توقعت من

عمتها أن تبتسم.. لكنها بدل هذا أظهرت انزعاجها من هذا الردّ.

- آه! زاندي! أرجو أن لا تكوني قلت له إنك لن تقابليه مجدداً؟

قبل أن ترد، قالت لها العمة بأن عليها أن تعرف أنه ليست جميع الزيجات كزيجة والديها.. وأن على زاندرا ألا تسمح لخلافات والديها بالتأثير في نظرتها إلى الحياة.

في السنوات الثلاث التالية، كانت تتحدث كثيراً عن فضائل الشاب الذي يرافقها. ثم أخذت تحاول المقارنة لتختار منهم الزوج الصالح ولكن زاندرا لم تجادلها قطّ، مع أنها حاولت أن تصور لها أنها غير مهتمة بالزواج من أجل الزواج.. لكنها فشلت ونجحت فقط في إقناعها بأن لديها عقدة من الزواج.. أما هي فكانت تعرف أنها لن تتزوج إلا إذا أحبت فعلاً الرجل الذي ستتزوج وفاجأها الألم وهي تدفع الأفكار التي تدور حول اندرو بعيداً عن رأسها.

عندما بلغت الحادية والعشرين انضمت إلى خطوط كرونويل الجوية فمرت بفترة تجربة دامت ستة أسابيع أحرزت فيها نجاحاً. وها هي تمارس عملها كمضيفة في الطائرة منذ ذلك الوقت. في البداية عملت في رحلات قصيرة ولكن لمّا حظيت بالخبرة انتقلت إلى الرحلات البعيدة المدى.. وكان عملاً صعباً ومتعباً، لكنها أحبت كل دقيقة منه.. كانت تنسجم بشكل جيد مع من تتصل به من الناس.. ويبدو أن الركاب، وطاقم الطائرة، أحبوها إلا ڤيك سبنسر الذي كان الاستثناء الوحيد، لكنها قررت عدم التفكير فيه أيضاً.

في الفترة الأولى التي تركت فيها منزل عمتها شعرت بالألم، كانت قد تشاركت مع ثلاث مضيفات أخريات شقة سكنية.. مع ذلك بقيت بطريقة ما وحيدة.. هكذا بحثت عن شقة خاصة بها.

أجل.. إنها تحب هذه الشقة.. ووقفت أمام المرآة تعتمر قبعتها الرسمية بشكل صحيح، ثم التقطت حقيبتها. وقبل أن تخرج ألقت نظرة أخيرة على ما حولها.. لتتأكد من أن كل شيء في المنزل بوضع جيد.

أقفلت الباب خلفها ونزلت إلى الشقة السفلى حيث يعيش الزوجان كوليت وريك كريمزون.. ستراقب كوليت بعناية شقتها، وتعرف أنها مسرورة لاحتفاظها بمفتاح إضافي في حال حدوث شيء طارىء.. وستكون جاهزة لتنفذ الشقة في أي وقت كما أنها تدير لها المدفأة حين تعرف بموعد عودتها.. كان المنزل قديماً لذا هو معرض في أي وقت إلى حادثة ما.. بالأمس فقط ذهبت إلى وكيل الأملاك الذي يدير المنزل نيابة عن المالكة السيدة ساوث، لتبلغ عن إطار نافذة زجاجية مكسور..

سألت كوليت: «كم ستغيبين؟»

- ستدوم الرحلة ثلاثة أسابيع!

حاولت زاندرا أن تدس بعض السعادة في جملتها.. ولكنها وجدت صعوبة في هذا.. اللعنة على أندرو!

انطلقت كوليت التي لم تعرف بانفصال زاندرا عن أندرو، تتحدث بسعادة وحبور.. أخيراً وجدت زاندرا فرصة لمقاطعتها بأدب:

- يجب أن أذهب الآن كوليت.

- حسناً.. بعد ثلاثة أسابيع سأشغل لك المدفأة لتجدي المنزل دافئاً.

ما أروع أن يكون لديها جيران مثل ديك وكوليت.. هذا ما فكرت فيه وهي تنزل الدرج.. إنهما يحبانها، وهي ترد لطفهما أحياناً بأن تكون جليسة لولدهما الصغير البرت البالغ ثلاث سنوات. في الطابق الأرضي التقت الآنسة بايكر العجوز التي كانت خارجة من شقتها، فتوقفت لتكلمها وهي تسرع عبر الباب الأمامي:

- احذري آنسة رودس!

ابتسمت زاندرا.. فالآنسة بايكر لا تثق بالطائرات..

مرت الأسابيع الثلاثة بسرعة.. وكم حمدت الله لأن ڤيك سبنسر لم يكن قائد هذه الرحلة. في هذا الوقت بذلت جهداً لئلا يدرك أحد بالمحنة العاطفية التي تمرّ بها.. في إحدى المرات سألها القبطان:

- أما زال ذلك الشاب أندرو يأخذ كل وقت فراغك؟

ردّت بهدوء: «ومن هو أندرو؟»

وكان هذا كافياً له إذ سرعان ما حرص على أن يكون إلى جانبها في أول نزهة خرجت بها مع آخرين في أول محطة لهم للتفرج على المناظر.

عندما حطت بهم الطائرة في «كالكوتا» اقتنعت زاندرا أن الأمر انتهى بينها وبين أندرو ولن يتصل بها مرة أخرى.. ولكن إن اتصل فسترفض الخروج معه..

عندما وصلوا إلى لندن كان الطقس دافئاً.. كانت الأسابيع الثلاثة مرهقة، وكانت زاندرا سعيدة برحلتها. بعد قليل تركت الطائرة لتقول وداعاً للمضيفين والمضيفات المجتمعين قرب لوحة الإعلانات. اتجهت إلى موقف السيارات وكانت تهم بركوب السيارة عندما نظرت إلى صف السيارات المتوقفة، وتجمدت مرعوبة.

لم تكد تصدّق عينيها.. قلبت عينيها بسرعة. ثم جفّ اللون من وجهها واضطرت لإسناد جسمها إلى أقرب سيارة لتمنع نفسها عن الوقوع.. إنها هناك، واقفة تبتسم وتتحدث... لم تجد عمتها أليس فقط، بل رأت معها الرجل الضخم الذي كانت تبتسم له وتتحدث إليه، ولم يكن سوى الكابتن ڤيكتور سبنسر.

يا الله.. لا! كيف أنت إلى هنا؟ ماذا..؟ من..؟ تهددت قواها العقلية بالانهيار وتصارعت الأفكار في رأسها، وشعرت بأنها ستذلّ ذلاً ما بعده ذل إن أخبرته عمتها بأنه سيتزوج من المضيفة التي لا يطيقها.

كان ڤيك سبنسر على وشك وضع العمة في سيارته، حين رأت العمة ابنة أخيها.. في تلك الأثناء كانت قد استجمعت شتات نفسها فهرعت حتى أصبحت على بعد عشرين ياردة منهما، كان همّها أن تبعد عمتها عن ڤيك سبنسر قبل أن تخبره شيئاً يجعله يثب لهيب الغضب على رأسها، ويجعلها أضحوكة جميع العاملين في شركة كرونويل.

كرهت أن تجرح عمتها هكذا.. ولكن ليس لديها أي حلّ آخر.. عليها أن تجرّ عمتها بعيداً إن اقتضى الأمر.. قطعت ما تبقّى من مسافة في

لحظة، وفتحت فمها لتتكلم.. ولكنها أقفلته ثانية فقد شعرت بهبوط قبضة ثابتة على ذراعيها، وأحست بأنها تشدّ بقوة إلى جسد ڤيك سبنسر القاسي.

ازداد ضغط يديه على ذراعيها عندما أحسّ بمقاومتها الغريزية للخلاص منه.. وعرفت أنه لن يتركها حتى يكون مستعداً لذلك.

لجمت آهتها وراحت تفكر كم أخبرته العمة أليس.. إنه أطول منها بثمانية إنشات على الأقل.. رحلت عيناها إلى فوق مع أنها خائفة مما ستقرأه في عينيه.. فكان أن اصطدمت عيناها بذقنه القاسي كالحديد، ثم ارتفعتا إلى فمه غير المبتسم.. لم تجد أثراً للمرح هنا.. تابعت عيناها جولتهما حتى توقفتا عند عينيه الرماديتين الفولاذيتين الباردتين.. أرادت أن تسبح بنظرها بعيداً، ولكنها لم تستطع.. أرادت أن تبتعد، ولكنه أمسكها وسمّرها إليه.. ثم أحست بأنفاسه تلفح وجهها.. فتمنت لو يغمى عليها فوراً.. إنما لم يسبق لها أن فقدت الوعي طوال حياتها..

سمعت زاندرا عمتها تقول:

ـ لا يرى المرء كل يوم فتاة تركض لتحمي خطيبها، سيد سبنسر!

تساءلت والكلمات تصدمها، إن كانوا سيصدقونها إذا ادّعت الإغماء.

عضت شفتها خزياً وخجلاً وراحت تحاول مقاومة إغراء محاولة الإغماء.. فهذا أمر يجب مواجهته، حتى بعد أن تقرر العودة إلى وعيها.. لأن هذا الموقف لن يزول، ولا مجال للخلاص منه. عليها الآن وأمام ڤيك سبنسر بالذات أن تعترف لعمتها أنه ليس خطيبها وأنه لم يكن يوماً خطيبها وأن الفيلة قد تطير قبل أن يفكر في خطبتها. تعرف أن العمة أليس ستتألم وأن سبنسر سيقطع لحمها.. لكنها لن تستطيع فعل شيء.

خف الضغط على ذراعيها، ووجدت نفسها قادرة على الالتفاف لتواجه عمتها المبتسمة سعادة.. رفعت رأسها بكبرياء وبدأت:

ـ عمتي...

لكنها لم تستطع أن تردف شيئاً.. لأنها سمعت ڤيكتور يرد على تعليق العمة المتعلق بركض الخطيبة لملاقاة خطيبها.

ـ لم نرَ بعضنا منذ زمن طويل.. أليس كذلك عزيزتي؟ علينا التحدث بأمور كثيرة.. أليس كذلك؟

لم يعجب زاندرا طريقته بالقول «أليس كذلك!» جلبت ذراعها مرة أخرى للابتعاد عنه.. لكنه كان جهداً ضائعاً، إذ قال لها:

ـ لديّ أمور أود استيضاحها.. سأزورك في الوقت المعتاد، ونتناول العشاء معاً في مكان ما.

زاد ألم ضغطه على ذراعها وأجبرها على القبول، فتمتمت: «أجل.. حسناً».

لا تفهم لماذا لم يفضح أمرها.. مع أنها تعرف أنه يملك هذا الموقف أكثر منها..

اختار ڤيك تلك اللحظة ليرخي قبضته عن ذراع زاندرا، فابتعدت عنه وهرعت إلى عمتها تضمها.

قالت وهي لا تتحمل رؤية دموع عمتها:

ـ لا تنكدري عزيزتي..

ـ أنا سعيدة من أجلك زاندي.. كدت أوقن من أنك لن تتزوجي.

أجبرت الابتسامة على الظهور إلى وجهها، أما العمة فكانت تمسح دموعها ثم أبعدت ذراعها عن كتفيها.. يا لها من ورطة.. العمة أليس تكاد تطير فرحاً لأنها قابلت خطيب ابنة أخيها.. وڤيك سبنسر ينظر إليها.. كيف؟ ماذا تقول هاتان العينان الرماديتان لها؟ أتتصور أنهما تقولان لها: لا تقولي شيئاً لعمتك حتى تتاح لي فرصة الحديث معك!

يبدو أنها أصابت في قراءة أفكاره لأنه وضع ذراعه حولها، وجذبها إليه مجدداً.. وكانت لحظة رهيبة فقد رأته يحني رأسه.. تجمدت وتخدّرت أحاسيسها.. سيقبلها.. ولكنها أدركت أنه ينوي أن تبدو قبلة من الجهة التي تقف فيها العمة.. ورأت في عينيه وميض الرضى الكامل

وهو يدرك خوفها، ثم قرّب فمه من أذنها، وسمعته يهمس:

ـ الزمي الصمت حتى أراك فيما بعد، وناديني ڤيك.

ثم رافقهما إلى سيارة الميني وهناك قالت عمتها إنها تتطلع شوقاً لرؤيته مجدداً.. فقال بدون أن يلزم نفسه:

ـ سنرى ما نستطيع أن نرتبه سيدة سموليورن.

تأكد من أنها استوت إلى مقعدها قبل أن يقفل لها الباب، ثم اتجه نحو مقعد السائق. نظرت زاندرا إليه بعجز.. وكانت مسرورة لأن عمتها لن ترى تعابير وجهه.. أهون ما يمكن أن يقال عن نظرته إليها هو التجهم، ولكنها نفذت ما قاله لها وتمكنت من القول بصوت أجش:

ـ باي.. ڤي.. ڤيك.

ارتدّ إلى الخلف بدون أن يقول كلمة أما زاندرا فشغلت المحرك وقادت السيارة..

* * *

٢ - لن يقبل اعتذارها

كانت أليس سمولبورن مأخوذة بالرجل الذي تركتاه في موقف السيارات، فقد قالت لزاندرا إنها أخبرته بأنها تقيم بعيداً عن لندن، وأنه سألها منذ متى وهي تقيم هناك: «لكن.. كما قلت لخطيبك الرائع...» يا إلهي! «.. جئت إلى لندن مع رحلة للاتحاد النسائي، وعليّ اللحاق برحلة العودة في الخامسة مساء». لدى زاندرا أسئلة كثيرة تطرحها على العمة ولكن عليها أن تكون لبقة.. فلسبب ما لم يرغب ڤيك سبنسر بالاعتراف لعمتها بالحقيقة.. والواقع أنها مسرورة بهذا.. فهي جبانة، وهي غير قادرة على خطف بريق السعادة عن وجه عمتها..

سألت: «كيف وصلت إلى المطار عمتي؟»

- استقليت سيارة أجرة.. أعرف أن في هذا تبذيراً بسيطاً، لكن.. لكنك كتبت في بطاقتك البريدية أنك ستصلين اليوم.. لذا فكرت في موافاتك لأفاجئك.

يا عمتي الحبيبة.. فاجأتني حقاً..

قالت بصوت مرتفع:

- آه.. إذن التقيت ڤيك.. ڤيك صدفة وأنت تنتظرينني.

طالما سمعت بالصدفة الغريبة لكنها في غنى عنها.

- لا.. لقد وصلت مبكرة قليلاً، لذا ذهبت لأسأل الفتاة في مكتب الاستعلامات عن السيد ڤيك سبنسر، فأخبرتني أن من المتوقع وصوله بعد الثانية عشرة.

سألت زاندرا بضعف: «أخبروك متى سيصل السيـ.. ڤيك؟»

- أخبروني فقط بعدما قلت لهم إنني قريبته. حسناً.. أظن أنني تقريباً قريبته، أليس كذلك؟

وما عساها أن تجيب عن هذا؟ لقد حضرت عمتها إلى المطار عدة مرات في السنوات الثلاث الأخيرة، وتستطيع الوصول إلى موقف السيارات لرؤيتها.. لكن أملها الوحيد ألا تكون العمة قد ذكرت اسمها كما ذكرت اسم ڤيك.. فلو حصل هذا، فلن تستطيع أن تتحمل العواقب.

سألت مرتبكة: إذن، انتظرت ڤيك ثم عرفته بنفسك؟

ردت العمة بسعادة: أجل.. لقد رافقتني الفتاة التي سألتها وأرشدتني إلى المكان الذي يجب أن أنتظره فيه.. أظنه رجلاً لطيفاً.

- ألم.. يظن أن الأمر غريب قليلاً؟

- غريب عزيزتي؟ ولماذا؟ آه.. تقصدين ظهوري في المطار بدون أن يعرف أنني قادمة؟

فكرت أليس قليلاً قبل أن تتابع..

- آه! نعم بدا مستغرباً قليلاً.. فلا أظنه توقع رؤيتي هناك بدونك.. ومع ذلك كان لطيفاً حين شرحت له من أنا.. عندئذ سألني إن كنت أودّ تناول الغداء معه.. من الطبيعي أن يرغب في معرفة المزيد عنك، لكنني قلته له «سيكون لديك الكثير من الوقت لتسمع أسرارها الصغيرة». على أي حال خشيت أن تفوتني رؤيتك.. لذا ذهب السيد سبنسر فوجد أن طائرتك حطت، وأنك لن تتأخري كثيراً، ثم اقترح أن ننتظر في السيارة.

صعب على زاندرا أن تركز على القيادة في الوقت الذي تفكر فيه بمخرج لائق لتخرج من هذه الورطة.. لهذا امتنعت عن الكلام وركزت على القيادة.

ما إن وصلت إلى الشقة حتى أصرّت على عمتها أن تجلس فستقوم هي بتحضير وجبة طعام لهما.. وما إن اختلت بنفسها حتى انطلق تفكيرها بسرعة.. لا فائدة من لوم العمة، الحبيبة المسكينة.. إنها سعيدة بحياتها

في الوقت الراهن، كما أنها لا تستطيع لومها لتقديم نفسها إلى فيك سبنسر، بعدما دفعتها إلى التصديق أنه خطيبها.. لا.. إن اللوم كل اللوم يقع على كاهل زاندرا وحدها. وأسندت رأسها إلى برودة جدار المطبخ.. كان رأسها يضج، ولا ينقصها الآن سوى الصداع.

غادرت السيدة سمولبورن قبل الرابعة بقليل.. وأرادت زاندرا أن تقلها إلى القطار ولكن العمة أكدت أنها تفضل فكرة الركوب في سيارة أجرة. عندئذ اتصلت زاندرا بمكتب الخدمات لتستأجر سيارة ثم وعدتها أن تزورها في أسرع وقت ممكن.

بعد مغادرة العمة، غرقت في تفكير عميق.. كان يمكن أن يكون الأمر مرعباً لو اكتشفت العمة أن علاقتها بأندرو انتهت. فلو حدث ذلك لبدأت بمحاضرة أخرى عن زواج أبويها الذي أوصلها إلى هذه الحالة النفسية.. لكنها لا تتصور أن فيك سبنسر يقبل بهذا كعذر.. وهذا يعني أنه ليس أمامها سوى الاعتذار منه.. وعليها أن تتحمل نتائج عملها.. الآن تكاد تشعر بشيء من غضبه وهي تعرف أن ما ينتظرها لن يكون لطيفاً.

لقد تذكرت رحلة قامت بها مع فيك سبنسر، مماثلة للرحلة التي أنهتها لتوها.. تذكرت كيف تخلى عن وجبة طعامه بعدما تناول الطيار المساعد وجبة مثلها.. وكان إدي سومر مساعد الطيار متزوج، ولكنه ضعيف أمام الوجه الحسن.. الواضح أن فيك حسبها تشجع إدي.. لأنه نظر إليها غاضباً.. وعندما حملت إليه وجبة الطعام كاد غضبه يدفعها إلى البكاء.

يومذاك سألها بهدوء: منذ متى تعملين مضيفة؟

- منذ سنتين تقريباً.

- إذن.. آن لك أن تعرفي أن الطيار ومساعده لا يتناولان، وأكرر لا يتناولان وجبتين متماثلتين.

تعرف هذا بالتأكيد لأنه أحد القواعد الرئيسية في كل شركة طيران.. وقد وضع هذا القانون لتجنب أي تسمم غذائي فيما لو كان الطعام ملوثاً،

فبهذا يبقى أحد الطيارين سليماً ليتولى قيادة الطائرة.. لو وقع هذا الأمر مع أي طيار آخر لضحكت منها أما فيك فجعل منها قضية. فكان أن عادت إلى المطبخ ووجهها يشتعل دماً، وركبتاها تصطكان.

حدث هذا منذ ستة أشهر تقريباً.. ومنذ ذلك الوقت يحدث كلما شاركت برحلة هو قائدها أن ترتكب هفوة تشعرها بأنها غير كفؤة.. إنه أمر مزعج، مع أنها كفؤة في عملها، وهذا ما تؤكده التقارير التي يرفعها عنها سائر الطيارين.

تناولت زاندرا قرصين من الأسبرين للتخفيف من ألم رأسها.. ثم بدلت بذلتها الرسمية، وارتدت روباً منزلياً، وذهبت لتتمدد في السرير.. بعد دقائق كانت تغط في نوم عميق.

عندما استيقظت وجدت أن صداعها زال، وهذه نعمة على أي حال، مع أن تفكيرها لم يكن صافياً.. لقد ذكر فيك سبنسر شيئاً عن العشاء.. قال إنه سيراها لاحقاً.. ولم تشك في أنها ستشنق، أو تغرق، أو تقطع على يده إرباً إرباً.. إنما لم تظن البتة أنه سيزورها في شقتها.

استحمت، وارتدت ملابس نظيفة. في الأحوال العادية، التي تتوقع فيها قضاء الأمسية في البيت، كانت ترتدي جينزاً وكنزة.. لكنها اليوم ألقت نظرة على خزانة ثيابها لتختار فستاناً.

ما إن سمعت قرع الباب حتى هبّت على قدميها، وكم أملت أن يكون الطارق كوليت.. لكنها خابت إذ طالعها جسد فيك الضخم.. لزمت للحظات الصمت لأنها لم تتمكن من التفوه بكلمة أما هو فكان ينظر إليها نظرة شاملة عميقة.. تعرف أن فستانها الليلي الطويل يبرز شكلها الجميل، وطولها الفارع.. ياقته المرتفعة مطرزة بلون عاجي وحول عنقها لون فاتح.. لكن القوة التي أعطاها إياه مظهرها قبل قليل تلاشت وهي تنظر إلى العينين الرماديتين القاسيتين.

تنحت وهي تتراجع إلى الخلف لتسمح له بالدخول إلى غرفة الجلوس.

- تفضل.. أدخل.. سيد سبنسر.. اجلس من فضلك.. أتريد.. أتحب أن تشرب شيئاً؟

لم يقبل ڤيك عرضها، وانتظرها حتى جلست ثم جلس على مقعد آخر بواجهها.

- هل سافرت عمتك بالسلامة؟

- أجل.. شكراً لك.

قابل كلامها بالصمت.. أما هي فراح العرق يتصبب من راحتي يديها ووجدت أنها تتكلم بالتفصيل وبهذر عن اختيار العمة وسيلة أخرى غير سيارتها.

- أجل.. أتوقع وصولها إلى منزلها بعد وقت قصير.

أشاحت وجهها بسرعة عنه لأنها غير قادرة على تحمل نظرته واحتد بتصاعد التوتر. أصبح من الواضح أنه لا ينوي تسهيل الأمور لها.. قالت بصوت رفيع غريب على أذنيها:

- سيد سبنسر.. أنا.. أنا.. أعرف أنك لا تستطيع أن تسامحني لكنني حقاً آسفة بشأن ما.. ما حدث اليوم.

لكن، لا.. يبدو أنه يحب أن يراها متلعثمة بإبداء أعذارها.

في تلك اللحظة، شعرت بأنها تكرهه.. يجلس في شقتها، ووجهه جامد غير مكترث، يترقب أن تكافح لتجد الكلمات، ينتظر أن تتكلم لتبوح له بكل شيء.. يجلس هناك، يواجهها وكأنه قاض ينتظر النطق بالحكم.. فجأة غضبت.. من يخال نفسه؟ إنها تعرف أن له الحق بأن يغضب ولكن لا يحق له أبداً أن يجعلها تشعر هكذا.. وقفت فجأة، ورأت أنه وقف معها، ووجدته قريباً جداً منها وهذا ما وترها.. ارتدت عنه وقالت بصوت حاد متوتر:

- سيد سبنسر.. لا أستطيع تقديم غير الاعتذار.. صدقت عمتي أننا مخطوبان.

للمرة الأولى تكلم بسخرية وبرود:

- أتساءل عمن أعطى السيدة سمولبورن هذه الفكرة غير المعقولة.

ازداد امتقاع وجهها ولم تستطع النظر إليه:

- ادعيت أمامها أنك خطيبي.

قال ڤيك الذي زالت السخرية من صوته:

- سامحيني إن استغربت الأمر آنسة رودس.. فلا أذكر أنني تقدمت لخطبتك.. لا أذكر أنني فكرت أساساً في طلب يدك.

كانا دائماً على طرفي نقيض.. عرفت أن السبب هو الكراهية الدفينة في داخل كل منهما.. لكن حتى وهو غاضب يبدو بارداً كالثلج.. لقد اعتذرت.. ولم يقبل اعتذارها.. ولكنها تفضل رؤيته ذاهباً إلى الجحيم على أن تجثو أمامه.

رفعت رأسها قليلاً، وقالت بجفاء:

- كنت مدينة لك باعتذار.. وقد قدمته لك سيد سبنسر.. والآن..

واتجهت إلى الباب وكأنها تطلب منه الخروج.. لكن البرودة الرهيبة في صوته صدمتها، وجعلتها تلتفت إليه وهو يقول:

- ليس بهذه السرعة رودس.. ليس الأمر بمثل هذه البساطة.

- أليس بهذه البساطة؟

- لا شك الآن أن خبر خطوبتنا يعم أوساط خطوط كرونويل الجوية.. وأنا أرفض أن أبدو أبله بسببك أو بسبب أي شخص آخر.

لم يسبق أن سمعت زاندرا بمثل هذه اللهجة في صوت أي رجل.. إنها لهجة لا تقبل الجدل تنذر بشرّ بارد.. ابتلعت غصة في حلقها.

اعترضت قائلة: «إنما لا يعرف أحد بهذا غيرنا نحن الثلاثة».

لكنها غير واثقة أن عمتها لم تكلم أحداً في الشركة.

قال باختصار: «سأوضّح لك.. جينا هارتلي رئيسة ناشري الشائعات في الشركة، كانت واقفة على بعد خطوات مني عندما قدمت لي السيدة سمولبورن نفسها».

يا إلهي.. ما الذي بدأته؟.. لا شك أن الخبر الآن يعمّ كل أوساط

شركة الطيران.. ولا غرابة إذن أن يتصرف معها بهذه الفظاظة.. رفعت عينين مضطربتين إلى عينيه، فوجدت ويا للغرابة أن الثلج اختفى من وجهه وهو يدرس نظرتها المهزومة.

في لحظة، اتخذ قراراً ما.

- أنا جائع.. أحضري معطفك.. سنحل هذه المشكلة حول مائدة العشاء.

أرادت زاندرا أن ترفض أمره لأنه لم يسألها الخروج، بل أمرها أن تتناول العشاء معه.. لكن، وبما أن شيئاً ما يجب التفكير فيه بشأن هذه الورطة، وجدت نفسها تجلس إلى جانبه في سيارته التي راحت تجوب طرقات لندن المزدحمة.

اصطحبها إلى مطعم معزول هادىء يقع خارج لندن.. كانت زاندرا كثيراً ما تخرج إلى العشاء خلال السنوات الثلاثة الماضية، إلا أنها لم تكن تعرف بوجود هذا المطعم.. لم يكن كبيراً بالنسبة إلى غيره من المطاعم الحديثة، وربما كان هذا جزءاً من سحره.. كان البناء موجوداً في أرض خاصة به، والحديقة مضاءة بأنوار خافتة في أمسية كانون الأول الباردة..

حيّرها ڤيك سبنسر.. كان يتصرف بشكل جيد، مع أنها تعرف أنه غاضب منها ومن الورطة التي زجته فيها.. توقعت منه أن يتجاهلها، إلى أن يتوصلا إلى مناقشة «خطوبتهما» لكنه لم يتجاهلها.. الواقع أنه لم يكن مستعداً للكلام، ولكنها لم تستطع أن تعيب تصرفه.. ساعتئذ فقط أدركت أن لديه حسن مجاملة متأصلة، وأنه لو كانا على متن طائرة، أو في خلوة شقتها لوبخها بقسوة. بدأت تركن إلى هذه الفكرة وتتمتع بوجبة طعامها فقد أدركت أنها جائعة.. وكانت قاعة الطعام شبه فارغة عندما تطرق إلى الموضوع:

- ربما تستطيعين إخباري كيف وصل بي الأمر أن أكون خطيبك!

جعلها سؤاله الهادئ تفقد شهيتها للطعام. فتظاهرت بأنها تمضغ قطعة لحم قبل أن تجيبه، وكانت تعلم أنها ستكون ممتقعة اللون بعدما

تنهي كلامها.

قالت: «سيد سبنسر».

- اسمي ڤيك..

تذكّرت أنها كانت بين ذراعيه عندما طلب منها أن تستخدم اسمه الأول، ووجدت نفسها، كالعادة، تزداد احمراراً للذكرى. وهذا ما لاحظه، وكان بإمكانها أن تقسم بأن الخجل البادي عليها صدمه ولكن وجهه بقي صارماً.

- ڤيك..

بدأت مرة أخرى.. لكن من أين البداية؟ هل تخبره بأمر أندرو.. يا الله! تمالكت أعصابها بسرعة وقررت أن تخبره شيئاً عن مشاعر عمتها نحو الزواج، ونحوها بالتحديد:

- عشت مع عمتي بعد طلاق والديّ.. وأنا أحبها كثيراً، وهي تحبني ولا تريد سوى سعادتي، لكن وبسبب فشل زواج والديّ.. ولأن العمة تعتقد أنني بتّ أكره الزواج، أخذ قلقها عليّ يتضاعف.

بدا ڤيك مستغرقاً في ما تقول، لكن وجهه بقي جامداً لذا لم تستطع قراءة ما يفكر فيه.. ثم جاء صوته بارداً، وكما ظنت قبل ذلك، لن يهوّن الأمر عليها.

- هل أفهم من هذا أنك ادّعيت أمام عمتك أنك خطيبتي، لمجرد بعث السعادة إلى قلبها.. لمجرد..

استطردت بسرعة:

- لم يكن الأمر هكذا.

ورفعت بصرها إليه فرأت أنه ينتظر بنفاد صبر أن تتم كلامها.. أشاحت بوجهها بعيداً لأنها غير قادرة على تحمل نظرته المباشرة..

أضافت: «أنا.. أنا.. كنت أخرج مع.. مع شخص آخر.. وظننت...».

صمتت قليلاً وطأطأت رأسها:

ـ ظننته.. يحبني.. و.. أجل، هذا صحيح.. ظننت أنها ستشعر بالسعادة عندما تعرف.. و.. أوه.. أعرف أن عليّ أن أشعر بالخجل من نفسي.. لكن في ذلك الوقت، لم أجد ضيراً من أن تعرف.. وعن غير وعي مني.. إذا كنت تفهم ما أعني، فكرت أنني كلما أسعدتها.. كلما.. كلما..

ـ أوقفها هذا عن الخوض في موضوع زواجك.

ـ أجل، أعتقد هذا.. لكن وقبل أن أحصل على الشجاعة الكاملة لأخبرها بأمر أندرو، راحت تسألني عبر الهاتف عما إذا كان طلب يدي، ثم سألتني عن اسمه.. وعن عمله وعما إذا كان يعمل معي على الطائرة.. وحدث أن قلت لها إنه طلب يدي.. ثم، وربما لأنك كنت تحتل أفكاري بسبب تأنيبك إياي قبل وقت قصير، وبسبب شعوري بالغضب.. أعطيتها الاسم الأول الذي خطر ببالي.

خيّم صمت حذر قارص شعرت زاندرا فيه بقلق لم يسبق لها أن شعرت بمثله.. لقد أخبرته بكل شيء.. كل شيء يحق له أن يعرفه.. وها هي تجلس بانتظار الإتهام اللاذع. لكن سماع صوته الهادىء صدمها، وهو يسأل:

ـ وماذا ستقولين لعمتك عندما تتصالحين مع أندرو هذا؟ هل ستقولين إنك تخلصت بسرعة من حب قُبك سبنسر.. وإنك..

ـ لن أتصالح مع أندرو.. لقد انتهى كل شيء.

سألها بلهجة من لا يصدق:

ـ انتهى؟ سرعان ما ترمين نفسك بين ذراعيه حين يزورك.

التفتت إليه وردّت، وفي عينيها برود وعلى أساريرها تحجر:

ـ لن يحصل هذا. انتهت علاقتي بأندرو بوغت.. ولو جاء يتوسل إليّ لأخرج معه فلن أقبل!

ـ يبدو أنه قام بعمل قادح حتى بلغت هذا الحزم.. ما الذي فعله معك ليسقط من فوق عرشه الذي وضعته فوقه؟

عاد إلى سخريته الحلوة، وبما أن لا شيء قد يجبرها على كشف سذاجتها أمام ما خطط له أندرو، فقد ردت على نظرة قُبك ببرود، ونظرت إليه نظرة لا أثر للعاطفة فيها وقالت:

ـ لا شأن لك بهذا سيد سبنسر.

اشتد فكّه فأحست بشيء ما يرتجف في معدتها، ثم أدركت بشيء من الخوف أن أحداً لا يجرؤ على القول لمن هو مثل قُبك سبنسر بأن يلتزم بشأنه.. ردت الطرف عنه وراحت تجيله في غرفة الطعام، فلاحظت أنهما وحيدان فيها.

قال قُبك بصوت حازم أجش:

ـ فلأوضح لك بعض الأمور زاندرا.. أنهيت عملي اليوم، وكلي أمل أن أستمتع ببضعة أيام من الراحة في مكان يكون الحديث فيه مسموعاً من الجميع.. وها أنا أرى نفسي أمام فتاة ترمي نفسها عليّ مدعية أنها خطيبتي.. فتاة لديها القدرة على إثارة أعصابي كما لم يقدر أحد من قبل.. ولكنني راعيت مشاعر السيدة سمولبورن التي وجدتها من ألطف الناس، فلم أفضح أمرك.. ثم فكرت أن أنتظر أولاً سماع تفسيرك.. انتظرت سماع ما ظننته مسألة حياة أو موت، دفعتك إلى القول بأنني الرجل الذي ستتزوجينه.

تلاشى لون زاندرا أكثر فأكثر، وهذا ما دل بوضوح على أن كراهيتهما متبادلة. لكن الأسوأ آتٍ، فهو لم ينته منها بعد.

ـ تناولت العشاء معك، وانتظرت حتى وجدتك اطمأنت واسترحت فسألتك عما دفعك إلى هذا الإدعاء المجنون، وعرفت أن سبب ادعائك هو الحبن التام.. أنت جبانة لأنك لم تجدي الجرأة للاعتراف لعمتك أنك فسخت علاقتك.

صدمها كلامه، لكنه تابع القول دون رحمة، بصوت لم يفقد شيئاً من برودته القاسية:

ـ بعد الاستماع إليك.. خطر ببالي أن أتجاهل اندفاعاً يدفعني إلى

إجبارك على البوح لعمتك أن الخطوبة انتهت. وليس ذلك فحسب بل فكرت أن أترك الخطوبة قائمة.. ولهذا السبب، فقط، أردت أن أكون واثقاً من أن حبيبك السابق لن يتسلل ثانية إلى المسرح.. وأردت أن أعرف ما الذي حدث بينكما لأحكم بنفسي إن كان سيعود إليك.

كانت كلماته في منتهى الوضوح.. فلم تجرؤ زاندرا على النظر إليه مع أن كلماته آلمتها.

أضاف: «ولكنك كنت من الوقاحة بحيث قلت لي أن لا شأن لي بهذا».

كم تمنت لو تستطيع الهرب منه.. لقد عانت من سلاطة لسانه من قبل، إنما لم تكن هكذا قط.. كانت وجبتهما قد انتهت، ولم يعد هناك ما يقال.. وفكرت أنه ربما ينتظر سماع ردها على ما قال.. لكن ماذا يمكن أن تقول؟ من حقه أن يجلدها بالسوط.. وهو محق بنعتها بالجبانة.. ولكن كيف لها أن تستجمع الشجاعة لتقول لعمتها ما تعرف أنها يجب أن تقوله.

وقف ڤيك سبنسر، مشيراً إلى أنه أيضاً لا يجد أن هناك ما يقال أكثر.. وكان أن رافقته بصمت إلى سيارته.

بعد انطلاق السيارة شعرت بأن كل دقيقة تمر هي دهر.. وشعرت بأنها مدينة له باعتذار.. إنه غارق وسط الورطة التي وضعته فيها.. لكن بسبب تجهمه وجدت الاعتذار صعباً.

ـ أنا.. أنا آسفة لأنني قلت لك أن تعتني بشؤونك.

قابل اعتذارها الصمت.. نعم هي جبانة عندما يتعلق الأمر بجرح مشاعر عمتها، ولكنها في الواقع لا تفتقر إلى الشجاعة أبداً.

أردفت: لم أدرك ماذا يجول في خاطرك.. ولم أفهم لماذا أردت أن تعرف مدى علاقتي بأندرو.. لكنني ما زلت متألمة.. ولهذا لم أستطع أن أخبرك شيئاً.

تحولت عينا ڤيك سبنسر عن الطريق أمامه لينظر إليها بسرعة، وهذا

هو الشاهد الوحيد على أنه سمع كل ما كانت تقوله له، ثم أعاد انتباهه إلى قيادته.

ـ أما زلت تحبينه؟

فكرت في هذا هنيهة.. أما زالت تحبه؟ في هذا الوقت كانت من الارتباك بحيث لم تستطع تفسير مشاعرها ولكن إن لم ترد فسيأخذ ڤيك صمتها على محمل التأكيد ويتأكد بأنها تحبه.

ـ قلت إنك ظننت أنه يحبك.. فهل أفهم من هذا أنه لم يعد يحبك؟

ردت، كأنها تكلم نفسها:

ـ لا أظنه أحبني يوماً.. آه! قال إنه أحبني، ولكنه ما قال لي ذلك إلا لـ..

وتلاشى صوتها.. لن يهتم ڤيك سبنسر بهذه التفاصيل.. كما أنه الآن يوقف سيارته أمام باحة المبنى الذي فيه شقتها.. لكن قبل أن تتحرك، ارتدّ ڤيك إليها وسأل:

ـ ما هو السبب؟

ـ أوه.. أنت تعرف الرجال.

أحست أنها كادت تقترب من إخباره بما كانت عازمة على البوح به أمامه..

قال موافقاً: أعرف الرجال.. لكنك بدوت وكأنك.. اكتشفت هذا لتوك.

آلمتها لهجته التي أوضحت لها أنه يظنها تعرف كل شيء عن الرجال.

ـ ما رأيك بهذه المفاجأة الثانية في يومك هذا؟ زاندرا رودس، مغفلة إلى درجة أن تصدق الرجل عندما يقول لها إنه يحبها، وهي بلهاء بحيث تظن أن إعلان الحب يتبعه بشكل طبيعي رنين أجراس الزفاف.

قاطعها صوت ڤيك:

ـ توقفي عن محاولة السخرية، فهي لا تناسبك.. إذن ادّعى هذا الشاب انه يحبك.. وبعد زوال أول شعلة من الرومانسية، طردك من فراشه

ومن حياته؟

ردت بغضب لأنه فسّر ما قالته على منحى آخر:

ـ لم أدخل قط فراشه!

سأل بعدم تصديق: «قط؟»

أكدت له ببطء: «نعم، قط».

ـ لكنك تحبينه.. وأعتقد أن الفراش هو النتيجة الوحيدة للحب هذه الأيام.

ـ ليس بالنسبة للجميع.

شعرت بالندم لأنها اعتذرت منه.

ـ وهل أنت مختلفة؟ أخبريني.. هل لرفضك الذهاب معه إلى الفراش علاقة بانفصالكما؟

لم تجد زاندرا سبباً يجعلها تخفي ما تبقى من الحقيقة.. وفي بضع كلمات قصيرة، أخبرته بأمر مخطط نهاية الأسبوع الذي كانت تتوق إليه.. واخيراً أنهت كلامها:

ـ كانت فكرته عن المرح، كما اكتشفت متأخرة، مختلفة كل الاختلاف عن فكرتي.

ـ يا إلهي! لا أصدّق بأن فتاة بمثل جمالك بريئة إلى هذا الحد.. أوافقك القول بأنك بلهاء.. أليس كذلك؟

أحست بأنها فعلاً بلهاء، ولم تجد جدوى من مناقشة الأمر أكثر من هذا، فتحركت لتغادر السيارة.. لكنه أمرها:

ـ ابقي حيث أنت.. لأننا لم نتفق على ما سنفعله بشأن خطوبتنا.

جمدت في مقعدها.. لقد نسيت لبعض الوقت، أن الدافع الوحيد لخروجها معه هو محاولة تقرير ما يجب فعله. كانت على وشك أن تفتح فمها وتقول إنها ستنكر الشائعة، وإنها ستعترف بكل شيء لعمتها، لكنها وجدته يتكلم مستطرداً:

ـ سنترك الخطوبة قائمة لفترة.

ارتدت إليه مذعولة ولكنها وجدت الخشونة ما تزال مسطورة على وجهه، أو أن هذا خدعة من النور الداخلي الذي أضاءه لتوه.. لكن صوته كان يقرر أمراً واقعاً حين تابع:

ـ لا بد من وجود ملاحظة شاذة من هنا وهناك في الشركة.. لذا دعينا نتابع اللعبة، وسرعان ما تزول.

ـ لكن..

لم تكن زاندرا واثقة من رغبتها في ترك الخطوبة قائمة، ولم تكن راغبة في الاعتراف لعمتها أنها غير مخطوبة.. لكن من بين الفكرتين، فكرة أن تكون مخطوبة لفيك سبنسر، حتى في سبيل حفظ ماء وجهها، جعلتها تحس بالقلق أكثر من تفكيرها بعواقب الاعتراف لعمتها.

عاد ليكون ذلك الجلف الذي دعاها إلى العشاء:

ـ دون لكن.. لقد قلت لك، لن يستطيع شخص ما أن يجعلني أبدو مغفلاً.. زاندرا رودس أنت الآن خطيبتي.. انكري هذا، وستندمين.

***

٣ ـ الحل الوحيد.. المستحيل!

في الصباح التالي استيقظت زاندرا فشرعت بترتيب شقتها النظيفة أصلاً. فكرت في حمل بذلتها الرسمية اليوم إلى التنظيف.. فالأناقة جزء أساسي من عملها.. هل تجرأت فعلاً ونادت ڤيك سبنسر «ڤيك» ليلة أمس؟ بدت لها الأمسية كلها غير واقعية هذا الصباح بشكل ما.. لم تستطع أن تجد العلاقة بين الفتاة المتحفظة التي هي عليها، وبين الفتاة التي أخبرت ليلة أمس لكابتن الطيران المهيب، تفاصيل حميمة جداً من علاقتها بأندرو.

نفضت عنها التفكير في أندرو فالتفكير فيه لن يوصلها إلى أي مكان. كانت واثقة هذا الصباح أنها ما زالت تحب أندرو. وعزت الشكوك التي ساورتها بالأمس إلى ڤيك سبنسر وما سببه من تشويش في كيانها.. ركزت أفكارها على خطوبتها، التي كما قدر ڤيك، ستكون موضوع أخذ ورد لمدة تسعة أيام متتالية في أوساط المطار.. ثم سيحدث شيء آخر يأخذ أولوية الاهتمام، وينسى الجميع أمر الخطوبة.

تصاعد صوت قرع على الباب.. ليس ڤيك سبنسر بالتأكيد؟ وبدأ قلبها يخفق بجنون لأسباب مجهولة. ولمّا فتحت الباب وجدت السيد ساوث، صاحب الملك، واقفاً هناك.

ـ صباح الخير سيد ساوث.

دعته إلى الدخول ورجته أن يجلس.

سألته: «هل جئت بخصوص خشب النافذة الزجاجية المكسور الذي

أبلغت وكيلك عنه؟»

رد السيد ساوث بأسف: «لا.. آنسة رودس».

بدت عليه بوادر القلق، فاضطرت أن تسأل:

ـ هل من خطب ما؟

تنحنح.. ثم قال بوجه متجهم:

ـ حسناً.. الحقيقة يا آنسة رودس هو أنني لا أستطيع أن أؤمن المال اللازم لإصلاح المزيد في هذا المنزل.. وأنا آسف لاضطراري إلى قول هذا.. لكن يجب أن أبيع المكان.

أشاح بوجهه عن نظرة عدم التصديق التي رمقته بها.

أضاف: «أنا آسف عزيزتي.. لكن يجب عليك التفتيش عن مكان آخر لسكنك».

حاولت زاندرا استيعاب هذا. أهي مضطرة فعلاً للتفتيش عن شقة أخرى في هذه المدينة المزدحمة؟.. تابع الشرح أن كلفة صيانة عقار قديم، والضرائب، في تصاعد دائم.. لذا لم يبق أمامه سوى البيع. ولقد قال له وكيل الأملاك إن المكان سيباع بثمن أكبر إذا كان فارغاً.

ـ أردت إخبار كل المستأجرين بنفسي.. مع أنكم ستتلقون إخطاراً رسمياً عبر البريد.. وهذا أمر مفروض قانوناً بسبب قانون الإيجار..

خفق قلب زاندرا إشفاقاً على الرجل المسكين، فقد بدا قلقاً حتى الموت:

ـ أنا آسف لهذا آنسة رودس.. لكن بإمكانك رؤية وجهة نظري.

بعد خروجه نسيت عملها المنزلي كله ثم بدأت صدمة هذا الخبر تخبو.. تعلم أنه ليس من السهل إيجاد مكان آخر للسكن.. فقد تمكنت من الحصول على هذه الشقة، لأن زميلة مضيفة أخبرتها أنها توشك أن تتركها.. والآن عليها البدء من جديد بأسرع وقت فوجودها خارج البلاد لأسابيع أحياناً، يجعل المهمة أصعب.. وماذا عن كوليت وديك؟ كيف سيتمكنان من إيجاد مكان آخر، ولهما ابن في الثالثة من عمره؟ وماذا عن

الآنسة بايكر الساكنة في الطابق الأرضي.. جعلها التفكير في الآخرين تدرك أن متاعبها لا تقارن أبداً بمتاعبهم.. ودون المزيد من التفكير، تركت الشقة وقصدت باب كولييت.

ـ جاء لمقابلتك إذن؟ أنا أعد القهوة. أترغبين في القليل منها؟

ـ أرجوك.

قالت لها كولييت بعدما استقرتا، إن ديك تلقى عرضاً للعمل في مانشستر في المؤسسة التي يعمل فيها.

ـ كنا نفكر في الأمر منذ أيام.. ولكن ما يحدث الآن قرّر نيابة عنا. خاصة وأن الشركة ستساعدنا في إيجاد السكن.. وبالطبع لا يعرف ديك أن أمر الإخلاء وصلنا.. لذا سأرى ما سيكون رأيه.

تحدثنا قليلاً من الوقت، وقالت كولييت إن بيوت الإيجار تختطف قبل أن تصل إلى سجلات وكلاء الأبنية، وإن الشقق المعلن عنها في الصحف تستأجر قبل جفاف حبر الطباعة..

سألت زاندرا: ماذا عن الآنسة بايكر؟ إنها هنا منذ سنوات طويلة، أليس كذلك؟

ـ كانت هنا قبل أن نأتي نحن، ونحن هنا منذ سبع سنوات. لكنني أتوقع أن تسافر لتعيش مع شقيقتها على الساحل فقد حدثتني عن هذا قبل أيام.

يبدو أنني الوحيدة التي سأضطر إلى السير في طريق السعي وراء الشقة.. وبمساعدة كولييت أخذت تبحث في الصحيفة. أمضت الأيام الباقية قبل سفرها القادم بالبحث عن شقة بلا جدوى.. كانت تخرج باكراً لملاحقة الإعلانات في الصحف، وكانت تجول من وكيل أملاك إلى آخر، حتى يئست... فكان أن وضعت إعلاناً خاصاً بها في الصحف، لكن بلا جدوى أيضاً.

قبل أن تذهب إلى عملها يوم اتصلت زاندرا بعمتها معتذرة منها لأنها لم تتصل بها قبل الآن وراحت تشرح لها ما حدث.. كانت قد استلمت

إنذار الإخلاء الخطي، ودفعت إيجارها مقدماً وهذا يعني أن أمامها ثلاثة أشهر لتجد البديل.

سألت ألبس سمولبورن، متجاهلة العذاب الذي تمر به زاندرا:

ـ كيف حال ڤيك؟

ـ ڤيك؟ آه! إنه بخير.

ـ رجل لطيف.. وأنا سعيدة من أجلك زاندي.

إذن لم تستطع زاندرا أن تُفهم عمتها أن بالها مشغول بإيجاد مكان سكن أكثر من انشغالها بالتفكير في ڤيك سبنسر.. فتوقفت عن المحاولة، وأصغت إلى عمتها التي راحت تثني على ڤيك، ثم سألتها متى موعد الزفاف.

انشغلت في هذه الفترة بالبحث عن شقة لذا نحّت مسألة الخطوبة إلى زوايا تفكيرها.. ولكن في اليوم الأول على عودتها إلى العمل انقضّ الأمر عليها كالصاعقة.

«أيتها الغامضة، كيف تمكنت من هذا زاندرا؟».. مشكلة أن الجميع يعرف بخطوبتها إلى ڤيك، برزت عندما سمعت جينا هارتلي تقول لمضيفة أخرى «كنت أدور حول ڤيك سبنسر منذ وقعت عيناي عليه». ولم تسمع ما كان يقال بعد ذلك، لكنها وقفت لتصغي إلى جينا وهي تردف: إذن كل التصرفات الباردة التي كانا يظهرانها لم تكن إلا لذر الرماد في العيون، لئلا يلاحظ أحد ما بينهما حقاً.

في الأسابيع الستة التالية زارت زاندرا عدداً من البلدان الأجنبية.. ثم أمضت أيام راحتها في لندن بالبحث عن شقة، ولكن إحباطها ازداد حين لم تجد شيئاً. وكان المزاج المزعج الذي يدور حولها وحول ڤيك قد بدأ يخبو.. فقد أصبحت خطوبتهما الآن أمراً مقبولاً.. ونادراً ما كانت تذكر.

دخلت إلى شقتها ورمت حقيبتها على الأرض وهي تفكر في أن حياتها سابقى كئيبة حتى تحل مسألة خطوبتها. دايف هنتر، مساعد الكابتن في

الرحلة التي أنهتها للتو طلب منها الخروج معه وهما في «كاب تاون». وأوشكت أن تقبل، لكنها وجدته يسحب دعوته بسرعة وهو يتمتم:

- آسف.. نسيت أنك مخطوبة.

تقدمت إلى غرفة الجلوس وكانت تهم بخلع سترتها عندما رن جرس الهاتف الذي تعالى منه صوت ڤيك سبنسر:

- زاندرا؟

- نعم..

وتساءلت ماذا يريد، فلديها ما يكفيها دون سماع كلامه السليط.

- أنا ڤيك سبنسر..

لكنها تعرف هذا.. ولم يُشعرها صوته أنه في مزاج رائق.

- أريد رؤيتك.. سآتي إلى شقتك.

هذا أمر مثالي من ڤيك سبنسر.. لم يقل «أرجوك هل أستطيع؟» أو «هل هذا يلائمك؟» بل كل ما قاله «أريد رؤيتك.. وسآتي إلى شقتك».

تجاهلت المغطس الذي أملت الجلوس فيه لتنعم ببعض الاسترخاء... اغتسلت بسرعة وغيرت ملابسها وارتدت بلوزة قطنية وبنطلون جينز، وكان لها ما يكفي من وقت لتضع لمسة من أحمر الشفاه قبل أن يصل ڤيك سبنسر.

لم يتطرق إلى سبب رغبته في رؤيتها لأنه أدرك أنها على غير عادتها..

سألها: «ما الخطب؟»

جعلها سؤاله المقتضب تدرك أن وجهها كان معبراً بحيث قرأ الإحباط فيه..

أجابت: «وما هو السليم؟»

وعرفت من ضيق نظرته أن الموقف سينتهي إلى حرب علنية بينهما إن لم تفعل شيئاً لإنقاذ الوضع. أردفت تعترف:

- كل شيء يسير بشكل معاكس..

وكرهت نفسها لأنها تراجعت أمام غضبه المتصاعد، فقد أجاب:

لدينا جميعنا مشاكلنا..

أردف بهدوء:

- أتريدين أن تخبريني بما يقلقك؟

ڤيك سبنسر هو آخر شخص في العالم قد تفكر في إفضاء همومها له.. لكن بما أنه يعرف عنها أموراً كثيرة وجدت نفسها تقول:

- حسناً.. أولاً سياع هذا المنزل.. لذا عليّ أن أجد مكاناً آخر أعيش فيه.. وما أصعب أن يجد المرء مكاناً يستأجره.. لذا أقضي أيام راحتي، بالتجوال في كل مكان بحثاً عن شقة أخرى..

نظر إليها مفكراً: «دون جدوى.. أليس كذلك؟»

- أنت قلتها.. دون جدوى.

- قلت إن هناك أكثر من شيء واحد يزعجك.. فما هو الشيء الآخر الذي يكدرك؟

هزت كتفيها: «تقع المصائب كلها على رأس المرء دفعة واحدة».

كانت محبطة فعلاً، ولكنها حاولت ألا تدعه يرى مدى إحباطها.. ثم شعرت بأنه السبب في نصف مشاكلها.

- وما إن أنتهي من التجوال في مكاتب الوكلاء حتى أجد نفسي دون حياة اجتماعية.

كرر بعدم تصديق:

- بدون حياة اجتماعية؟ ولكنك مرغوبة من الجنس الآخر.

- كنت هكذا قبل أن أصبح مخطوبة.. أما الآن فلا أتلقى دعوة من أي فرد من معارفنا، لظنهم أنني خطيبتك.. و.. وأنا لا أشعر أنني قادرة على الخروج مع أحد من الأصدقاء الآخرين.. لأن هذا لن يكون إنصافاً لك.

لمحته ينظر إليها بحدة.. وقال:

- عليّ الاعتراف أنك خطيبة وفية فعلاً زاندرا.. ففي هذه الأيام لا تحمل الفتاة الخطوبة على محمل الجد، ولا ترى أنها ملزمة بالوفاء لخطيبها.

سأله:

- ولن يعجبك هذا.. أليس كذلك؟

أملت ألا يبدي أي اهتمام بما تفعله في وقت فراغها، وأن يعطيها الضوء الأخضر لتفعل ما تشاء.. الليلة ستقيم ماغي ليتلايد إحدى حفلاتها المعتادة، وقد ترتفع معنوياتها لو ذهبت إليها.

لكنه أجاب:

- لا.. لن يعجبني.. هل هناك شيء آخر يزعجك؟

بدأت زاندرا تقول:

- بما أنك راغب في معرفة المزيد من الأمور فلا بأس سأجيب.. أنا مضطرة في اليومين القادمين للاتصال بالعمة. ولا أظن أنني قادرة على تحمل سؤالها إياي عن موعد الزفاف.. و.. ولقد فاض الكيل!

تكره زاندرا أن يرى أحد دموعها.. لذا قاومت لئلا تنفذ دموعها تهديدها.. لم يتحرك ثيك، وخشيت أن تنظر إليه.. وفيما هي غارقة في الشفقة على نفسها، تذكرت أنه جاء إلى شقتها منذ عشر دقائق، لا ليجلس ويصغي إلى أحزانها.. لكن ما سبب مجيئه؟ مهما كان السبب، فلن يكون أسوأ مما هي عليه الآن. رفعت رأسها واستجمعت ابتسامة صغيرة مرتبكة:

- آسفة لأنني أزعجتك.. لم أقصد هذا..

عندما لم يبتسم ذوت بسمتها.. وندمت لأنها اعتذرت منه.. لا شك أنها كانت بلهاء وإلا لما أفضت إليه بكل همومها.. فهو آخر من يهتم بمشاعرها.. ولكن.. لماذا يهتم؟

أنهت كلامها ولجأت إلى إظهار البرود..

- لقد أسهمت بالحديث عن مشاكلي فلا أظنك أتيت لتصغي إليّ.. لماذا جئت سيد سبنسر؟

تمكنت بمناداته سيد سبنسر من جعل صوتها بارداً وعملياً.. إنما ما هي إلا لحظات حتى مد يده إلى جيبه، وأخرج صحيفة مطوية.. أنباها حدسها بأن كارثة على وشك أن تقع على رأسها.. وبدا وجهه متجهماً،

وهو يفتح الصحيفة..

- ماذا..؟

اتجهت عيناها إلى أعلى الصحيفة قرأت اسمها: «ميدلاين ومارتش بورو غازيت».

قالت: «هذه صحيفة عمتي المفضلة.. لماذا..؟».

قال: انظري إلى صفحة الإعلانات.. تحت عنوان «خطوبة».

آه.. لا..! حتى قبل أن تجد الصفحة، عرفت أن هناك إعلان خطوبة واحدة.. «يسرنا إعلان خطوبة اليكساندرا مارج رودس، إلى ڤيكتور ماكفلي سبنسر، ابن...».

وتأوهت زاندرا.. وهي التي ظنت أن لا شيء أسوأ مما هي فيه قد يحدث.. هذا يتوّج كل شيء! لكن من أين حصلت العمة أليس على هذه المعلومات؟ «.. ابن السيد دايفد ماكفلي سبنسر وحرمه الراحلة».

خشيت رفع نظرها إليه.. وتركت الصحيفة تسقط من يدها. يا إلهي! لماذا عمتي أليس؟.. ألن ينتهي هذا الكابوس أبداً؟

قالت بصوت مرتجف: «آسفة ثيك.. آسفة».

ثم اشتد تكوّر شفتيها وعرفت ماذا عليها أن تفعل.. يعتقد أنها جبانة أمام عمتها.. لكن هذا كثير.. ولا شك أنه يكاد ينفجر غيظاً.. فهو لم يطلب من أحد أن يورطه هكذا.. العمة أليس ستتكدر.. لكن على المهزلة كلها أن تتوقف عند هذا الحد.. فلا مجال لمعرفة ما قد تفعله العمة ببراءة..

قالت بثبات: «سأسعى لنشر تكذيب فوراً.. وسأسافر إلى ميدلاين اليوم، لأشرح الأمر لعمتي».

سمعته يتحرك وشعرت بظله عليها:

- لدي حل زاندرا.. وهو ليس التكذيب.

ارتفع رأسها ولكن بدل أن تراه متجهماً ومستعداً لتمزيقها، وجدت في وجهه ما لا يدفعها للخوف.. مع أنه لا يبتسم أبداً.. ثم تقدم ليجلس

قربها على الأريكة الصغيرة، فتحركت لتفسح له مكاناً..

سألت: «لا تريد تكليباً؟ لكن..؟»

- أصغي إليّ فقط. قلت لك إن لدي حلاً.. لكن قبل أن أقول لك ما هو، عليك أن تعرفي ماذا فعلت عمتك بإقدامها على نشر هذا الإعلان في الصحيفة.. هل سمعت بالكولونيل تايشتوك؟

سبق أن سمعت زاندرا بهذا الاسم، ولكن ما شأن هذا الاسم بموضوعهما..

- أعرف أنه يعيش في «مارتشيرو» وأظنه القاضي المحلي.

- صحيح.. ولكن ويا للصدفة الكولونيل تايشتوك هو صديق حميم لوالدي.. ولهذا، حين رأى الكولونيل خبر خطوبتي، أرسل نسخة عن الصحيفة لأبي.

صرخت بها أحاسيسها.. آه! لا.. لا.. ألا نهاية لهذا كله؟ وتجاهل ثيك ابيضاض وجهها:

- غني عن القول، أن والدي كتب لي رسالة غير مهذبة أبداً يسأل عن السبب الذي جعلني أمتنع عن إخباره.. ويجب أن أذكر أن والدي كان في المستشفى في سويسرا في الأشهر القليلة الماضية، والحقيقة أنه أكثر من حساس، لأنه مقطوع عن العالم.

أحست زاندرا أنها تكاد تجن.. فهذا كله بسبب كذبة متهورة لا معنى لها.. وهي السبب. وهي مستعدة للقيام بأي شيء.. أي شيء لتظهر لثيك مدى ندمها..

سألت وفي عينيها نظرة تقول إنها لن تتوقف عند شيء لإصلاح ما فعلته:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟ أنا مستعدة للقيام بأي شيء.. أي شيء تطلبه.

لا مجال للشك في صدقها، مع ذلك سألها:

- أواثقة؟

- كل الثقة.. قل ما تريد.

رأت وميضاً يبرق في عينيه، ثم عادت أساريره إلى التجهم.

- تعالي للعيش معي.. زاندرا.

لا، هذا آخر ما قد تتوقعه.. أصبح وجهها الشاحب قرمزياً، ولكنه ما لبث أن عاد شاحباً رمادياً وهي تهمس:

- كما.. كما لو.. أننا متزوجان.. تعني؟

- يا إلهي زاندرا.. لقد وجدت أن أفضل طريقة للخروج من هذه الورطة هي الزواج.

كانت تتلقى الصدمة إثر الصدمة.. لكن ثيك لم يكن غاضباً منها، ولم ينتظر لتستوعب كلماته بل أردف:

- ألا تدركين مدى خطورة أن تقولي لرجل لا تعرفينه تقريباً أنك مستعدة للقيام بأي شيء يطلبه؟ أشكري ربك زاندرا رودس، لأنني أعطف على براءتك التي تمنعني من أخذك للعيش معي بدون حماية خاتم زواج.

عندما استوعبت جيداً ما قال، هبّت قائلة:

- الزواج؟ أتقول إنك تريد أن نتزوج؟

- تبدين أكثر صدمة مما كنت حين فكرت أنني أقترح عليك السكن معي بلا زواج.

ومد يده ببرود يمسك يدها ويشدها لتعود إلى الجلوس فوق الأريكة إلى جانبه.

- أنا لم.. أنا.. ليس لدي النية في العيش معك، بزواج أم بدونه...

- لكنك قلت إنك مستعدة للقيام بأي شيء..

- أجل.. لكن.. الزواج! هذا أمر مناف للعقل!

نظرت إليه، فوجدت أنه لا يشاركها الرأي.. فنظرت بعيداً وهي ترتجف حتى أعماقها.. لن تتزوج أبداً إلا من أجل الحب.. وهي لا تعتقد أن ثيك سيسر بعجبها كثيراً.. وها هو جالس بهدوء، ينتظر بهدوء موافقتها.. لا، لا ينتظر موافقتها بل ينتظر أن تذعن لطلبه.

قالت بجرأة: «لا أستطيع الزواج منك.. هذا ما لا أستطيع التفكير فيه. إذا كان هذا هو حلك الوحيد للورطة التي زججتك فيها، فأنا أرفضه.. كل ما عليّ فعله هو الاعتراف لعمتي بالحقيقة كاملة وعندئذٍ ستنشر عمتي تكذيباً في الصحيفة ذاتها.. وستكون هذه النهاية».

رد بصوت بارد: «ألم تنسي دوري في كل هذا؟»

ـ أنا آسفة ڤيك.. حقاً أنا آسفة.. إن أعطيتني عنوان والدك سأكتب له رسالة أشرح فيها كل شيء.

ـ لا!

جاءت صيحته حادة ورنت في زوايا الغرفة.. وكان يعني ما يقول.. تبع هذا صمت متوتر، وتكدر فم زاندرا ولاحت عليه ملامح التمرد حتى تكلم ڤيك ثانية، وفي هذه المرة اختفى التوتر من صوته، وبدا على استعداد لمناقشة المسألة بهدوء:

ـ أعرف أنك لا تحبينني زاندرا.. أجل.. لقد رأيت الكراهية في عينيك بين الحين والآخر.. لكن أكنا متحابين أم متباغضين.. فلا بد لنا من الزواج.. لأن هذا الزواج سيحل الكثير من مشاكلك.

وكأنه بهذا اعترف أنه أيضاً لا يحبها.. وزاد اقتناع زاندرا بأن زواجهما خطوة تنيّ بكارثة.. نعم تعرف أن هذا سيقلّل من ضغط العمة أليس عليها.. والعيش معه سيكون حلاً لمشكلة السكن التي تعاني منها.. لقد أوقعت نفسها في شركه عندما أخبرته بأنها ستصبح بلا مأوى.. لكن المرء لا يتزوج من أجل إيجاد مسكن.. رفضت مجدداً:

ـ لا ڤيك.. لا أستطيع حتى التفكير في هذا.

ووجدت اسمه يدور بسهولة على لسانها..

سأل: «لماذا لا؟»

ـ حسناً.. أولاً لأن الفائدة ستعود إلى طرف واحد فقط.. أعني.. أعرف أن الزواج منك يعني التخلص من ضغط عمتي وإلحاحها على تزويجي.. ويعني أيضاً إيجاد حل لمشكلة السكن.. لكن ما الذي ستجنيه

أنت من كل هذا؟

غسلت وجهها موجة حمراء فقالت: آه!

ثم أحست بالعرق البارد يتفصد منها، وڤيك ينظر إليها بثبات، ولا يبدو أنه يجد صعوبة في فهم ما يدور في رأسها..

ـ لم أبغ الزواج منك من أجل الحصول على الفائدة التي تدور عادة بين الرجل وزوجته.

صمت قليلاً.. ثم أضاف لئلا يترك مجالاً للشك:

ـ لا حاجة بك لتقولي لي إنك جذابة، فعلى الرجل أن يكون أعمى إن لم يلحظ هذا.. لكن معاشرتك كزوجة ليس من بين مخططاتي.

عاد التورد إلى وجهها بسبب صراحته القاسية.. والغريب أنه نظر إليها نظرة تدل على أنها ستكون هي المحظوظة لا هو، إن وجدت نفسها يوماً تتلقى حظوة منه.

قالت، وذقنها يرتفع لتجبر نفسها على مواجهته:

ـ إذن.. أنا لا أثير فيك جسدياً أي شعور.. حسناً.. أقبل هذا.. مع ذلك لا أستطيع الزواج منك.

سأل ساخراً: لأن الاستفادة ستكون من جانب واحد، ولأنك لا ترين ما الذي سأجنيه من كل هذا؟ حسناً زاندرا.. أفهم أنك لن توافقي على الزواج بي إلا إذا كنت متساوياً معك.. لذلك سأعترف أن الزواج بك يناسبني جداً..

ـ أنت.. أوه..

عقدت دهشتها لسانها، ونظرت إليه نظرة العاجز عن الكلام، ولعل ما زاد دهشتها أن ترى في نظرته، أنه يفضل أن يقول لها أي شيء، عدا السبب الحقيقي للزواج بالنسبة له.. أضاف ببطء:

ـ كما سبق أن قلت لك.. والدي في المستشفى في سويسرا، منذ ستة. وكان قد تزوج امرأة كانت صديقتي يوماً.. حسناً واختصاراً للقصة.. يظن التيس العجوز أننا ما زلنا متحابين.. وهذا أمر سخيف

بالتأكيد.. لكن كلما حاولت أنا وسوزي إقناعه بأن لا شيء بيننا، كلما ازداد اقتناعاً بعكس ذلك.. المفروض أن يكون الآن في بيته.. لكن قلقه على مشكلة لا وجود لها تؤخر شفاءه».. والآن هل فهمت سبب حاجتي لزوجة؟ لن يكون زواجنا متعة لطرف واحد زاندرا.

ذهلت زاندرا.. وشعرت بالتعاطف مع أبيه.. لا شك أنه مخبول يبعده عن زوجته، بعده عن المرأة التي يحبها بسبب الشك والغيرة.

ـ آه فيك! أنا آسفة على والدك.

استغلّ ضعفها الموقت وهو ما كان ينتظره وقال:

ـ انظري إلى المسألة منطقياً.. لن يكون زواجنا دائماً.. فما إن يتعافى أبي وتقلع عمتك عن الضغط عليك، حتى نسارع إلى إبطال الزواج.

ـ إبطاله؟

ـ يبطل الزواج إن لم تتم فيه المعاشرة الزوجية.

تورّد وجه زاندرا مجدداً.. وعاد فيك إلى حثها على رؤية الوضع من باب المنطق وصوّر الأمر كله وكأنه أمر معقول.. ثم شعرت بأنها لم تفكر بجلاء حين فكرت برد طلبه.. فقد بدا كل شيء منطقياً، واعترفت لنفسها بهذا.. ثم سمعته يقول:

ـ أنت بحاجة إلى مكان تقيمين فيه.. ولدي غرفة نوم إضافية في شقتي لا تستخدم ولا مانع عندي أن تستمري بالعمل.

ردت دون تفكير: «سأستمر بالعمل بلا ريب».

ـ هاك إذن.. هذا يعني أننا لن نرى بعضنا إلا في أوقات متفرقة أي حين تتزامن أوقات راحتنا.

بدا لها ما يقترحه الحل المثالي.. ومع ذلك كانت حائرة.. نعم هي غير قلقة لأن لا حب وراء طلبه هذا.. ولله الحمد على ذلك.. فما زالت تشعر بالألم مما حدث لها مع أندرو يوغت، لذا لن ترغب في تجربة حب أخرى قبل وقت طويل.. ولكن في الأمر لغزة ما.. غير أنها لا تستطيع

تحديدها.

عاد يسأل: «ما رأيك بالأمر زاندرا؟ سيساعد هذا أبي على استعادة عافيته».

كادت تذعن.. لكن هناك ما منعها فقالت بصوت متردد:

ـ لا أدري.. لا أدري، فقط.. الواقع أنني بحاجة إلى وقت للتفكير.. هل أنهيت مهمتك للتو كذلك؟

ـ لا.. بل جئت مباشرة من سويسرا.

ـ قصدت والدك حالما تلقيت رسالته؟

ـ كان هذا أقل ما أفعله له.

لم يقل لها ما جرى بينه وبين أبيه، لكنها عرفت من خلال أساريره أن اللقاء لم يكن سهلاً.. في تلك اللحظة ودت لو تقول له إنها ستتزوجه ولو من أجل أن تصل الرسالة إلى أبيه، الرسالة التي ستريح باله وتضعه على طريق الشفاء.. لكنها تخشى أنها تندفع إلى ما قد تندم عليه لاحقاً.

كررت: «أحتاج إلى وقت للتفكير فيك».

وقف، وبدا أن لا شيء يضيفه، لكنها كانت مخطئة:

ـ سأمهلك حتى الثامنة من هذا المساء.

نظرت إليه راغبة في مجادلته بأن هذه الفترة غير كافية ولكنه تقدم إلى الباب ثم التفت إليها ناظراً نظرة متفرسة طويلة ثابتة.. ثم قال آمراً:

ـ اتخذي قرارك السلبي أو الإيجابي في هذا الوقت زاندرا!

لقد عاد إلى أوامره.. لقد عاد الكابتن فيكتور سينر!

* * *

٤ ـ كل شيء إلا الحقيقة

كيف لها أن تتزوج رجلاً لا تحبه؟ هل الزواج حقاً السبيل لشفاء والده؟

هاجمت الأفكار زاندرا وهي تقوم بالأعمال الروتينية التي تقوم بها عادة عندما تعود من أسفارها..

الظاهر أن سوزي تلك كانت مقربة كثيراً من ڤيك قبل أن تتخلى عنه؟ قد لا يكون هذا صحيحاً.. لأنه لم يقل إنها تخلت عنه، بل لا تتصور أبداً فتاة تقول له أن يغرب عن وجهها.. إنه صاحب تجربة وحنكة وهو واثق من نفسه.

أما زالت سوزي تحبه؟

هل كانت أصلاً تحبه؟

استسلمت زاندرا.. فقد وجدت أنها تدور في حلقات مفرغة..

حضرت لنفسها، آلياً، ستدويشاً وشراباً ساخناً. يجب أن تتصل بعمتها لتخبرها بعودتها سالمة.. لم تكن قادرة على مواجهة الكلام معها.

في وقت ما بعد السابعة، ارتدت زاندرا جينزاً وكنزة.. كانت قد أمضت النهار في ترتيب المنزل وتنظيفه وغسل الثياب.. وفي هذا الوقت تساءلت إن كان ڤيك سيتصل بها هاتفياً أم سيزورها، ولهذا لم تشأ ارتداء ما هو مميز.. كان يوماً طويلاً مرهقاً.. ولكنها فترة قصيرة لاتخاذ قرار من هذا النوع.. وكانت أفكارها تشتد وتسترخي طوال الوقت.

بعد الثامنة بدقيقة، وصل ڤيك.. لاحظت زاندرا أنه مثلها يرتدي ثياباً

عادية. ينطلون فروسية عاجي اللون وكنزة كانت تظهر تحت معطفه المصنوع من جلد الغنم.. وجاء معه بنفحة من برد كانون الثاني.. شرع يتأمل وجهها، وكأنه قرأ في تلك النظرة أن لا رد جاهز بعد لديها، وكان يمسك بمفاتيح سيارته.

ـ أترغبين بالخروج في نزهة؟

هزت رأسها: «سأحضر معطفي».

أراحت حركة السيارة أعصابها.. ڤيك سائق ماهر بمقدار ما هو طيار ماهر.. وكانت كلما تقدمت بهما السيارة كلما استرخى توترها.. في هذا الوقت لم يتباحثا بسبب زيارته ومع الوقت شعرت بأنها ممتنة له لأنه ترك لها كل هذا الوقت لنفسها.. أحست بالدفء نحوه.. وشعرت بأنها مطمئنة معه أكثر من أي وقت آخر.

ثم توقف أمام مبنى سكني مؤلف من ثلاث طبقات يبدو حديث البناء، فسألت: «أين نحن؟»

رد:

ـ إنه منزلي.. أنا بحاجة إلى فنجان قهوة، اصعدي معي لتحضريه لي.

خفق قلبها، وهما يتجاهلان المصعد، ويتسلقان الدرج قاصدين شقته.. ولكن لم يكن لتسارع دقات قلبها علاقة بتسلق الدرج.. لأن التوتر كان يشدّ أعصابها..

كانت غرفة الجلوس نعمة للنظر.. أول شيء رأته هو الجدران الخضراء الشاحبة، والأثاث المصنوع من الخشب الماهوغاني.. وبعدما تأملت جيداً الغرفة عرفت أن تمازج القديم والجديد هو الذي يجعلها جذابة.. ومررت يدها فوق متضدة الكتابة الناعمة تتنعم بملمسها الرائع.. كلفة الأثاث وحده ثروة.. ترى ماذا كان رأيه بمنزلها؟ فإذا ما فورت شفتها، رغم نظافتها، بشقته فهي تعدّ رديئة وتة.. لن تستطيع العيش هنا.. فشقته، شقته.. ما هي الكلمة المناسبة؟ كاملة.. فإن

أقامت فيها فلن ترغب في تركها. . ارتدت إليه وهي لا تدري أنه كان يراقبها ويقرأ تعابير وجهها. . وعرفت أن عليها أن تخبره بما تفكّر فيه. .

- ڤيك. . أنا. .

- أتوق إلى تلك القهوة، زاندرا.

وكأنه عرف أنها كانت على وشك القول له إنها لا تستطيع الزواج به. . ابتسم لها، لكنها لاحظت أن ابتسامته لم تصل إلى عينيه.

اقتادها من باب نقلهما إلى المطبخ، وتركها هناك. لم تشعر قطّ بمثل هذا العذاب. . ستصنع القهوة، ثم تطلب منه أن يتصل بسيارة أجرة لنقلها، إذ لن يرغب في هدر ساعة أخرى من وقته في إيصالها بعدما ترفض الزواج به.

ربما خفّ توترها. . ولكن يديها كانتا ترتجفان وهي تحمل الصينية إلى غرفة الجلوس، ما إن رآها حتى هبّ واقفاً من مقعده ليأخذها منها. . بعد ذلك جلس كل واحد منهما في مقعد. . قدمت إليه فنجان القهوة ثم نظرت إليه لتعرف ما يدور في خلده. . ولكنها لم تستطع أن تعرف شيئاً. . عليها أن تخبره حالاً قبل أن يعود التوتر بينهما مجدّداً. .

كان صوتها مرتجفاً وهي تقول:

- هل. . أستطيع. . رؤية غرفة نومي. . أرجوك؟

لم يظهر على وجهه أي ردة فعل إذ وافقت على الزواج به بطريقة ملتوية. . ثم بدأت ابتسامة عريضة تحتل فمه. .

في تلك اللحظة بالذات، وقعت زاندرا وودس في حب ڤيك سبنسر. . . وارتجفت القهوة بين يديها، فانسكبت. . نظرت إلى ما فعلت وهي تسمع طنيناً قوياً في أذنيها. لكن الإنسان لا يغمى عليه من الحب. . مع أنه كاد يغمى عليها فعلاً. . فلما توقف الطنين، نظرت إليه. . فإذا هو لا يزال مبتسماً وما زالت هي تحبه. . الآن عرفت بالضبط لماذا وافقت على الزواج به. . لا علاقة لهذا بعمتها أو بوالده، فعن غير وعي منها قال لها قلبها إنه أحبه. . لكن عقلها لم يسجل هذا الواقع حتى ابتسم.

سمعته يقول: «سأحضر قطعة قماش للتنظيف».

وسرّها أن تبقى لدقائق وحدها. كيف يمكن أن تحبه؟

عندما عاد كان ڤيك واقعياً. . لربما تخيلت تلك الابتسامة. . إذ لم يكن على وجهه ما يُظهر سروره لموافقتها على الزواج به.

قال لها وهي تحاول إبقاء ما تشعر به نحوه خفياً:

- سأريك الشقة. . ثم نصنع القهوة من جديد.

أراها الغرفة التي ستكون غرفتها. . الجدران مطلية بلون رمادي مشرق لم يعجبها لغرفة نوم. . لكن سائر الغرفة كان كاملاً كغرفة الجلوس والمطبخ. كان هناك عدا الخزانة المثبتة إلى جدار وطاولة الزينة، سرير لشخص واحد وطاولة إلى جانبه.

قال لها ڤيك:

- إذا كان هناك ما تحبين أن يضاف إليها أو يؤخذ منها، فأخبريني.

قالت له إنّ كل شيء على ما يرام، وإن لا جدوى من تغيير لون الجدران لأنها لن تمكث هنا طويلاً.

انتقلا من غرفتها إلى الغرفة المجاورة.

- هذه غرفتي.

ارتدّ إلى الوراء ليتركها تمر به. . كان طابع الغرفة رجولياً محضاً. . فهناك كتب على الرفوف، وعلى الطاولة وقرب السرير. . وثمة مصباح للقراءة فوق السرير المزدوج. . التقطت أنفاسها وهي تنظر إليه بطريقة أخرى سببها هذه المشاعر الوليدة حديثاً. طوله يتجاوز الست أقدام. . ولكنه ليس بديناً مع أنه عريض المنكبين. . انتقلت عيناها إلى خصره النحيل، ثم عادت فأشاحت بوجهها بعيداً.

أحست بتزايد توترها فارتدت لتترك غرفة النوم ثم ما لبثت أن انتظرت لحاق بها، فأراها الحمام الرائع بحوضه المميز الذي لم تكن تتمتع به في شقتها الصغيرة. . إنما لا مجال للمقارنة بين شقتيهما إلا في الفسحة الحميمة الموجودة في كلا المطبخين لتناول الشاي.

قام ڤيك ليعدّ القهوة مجدداً، ومرة أخرى جلسا في غرفة الجلوس.

سألها: «أتريدين الزفاف في «ميدلاين»؟»

ـ سنطلب عمتي هذا.

ـ حسناً.. بما أن علاقتنا هذه بدأت بسبب عمتك.. أعتقد أن هذا أقل ما نفعله لها.

تورد وجه زاندرا، وبدأت تقول:

ـ أنا آسفة...

لكنه قاطعها: هذا الزواج لمصلحتنا معاً زاندرا، لذا توقفي عن الاعتذار.

نظر إلى ساعته ووقف:

ـ تكاد تبلغ منتصف الليل، لذا أقترح أن أعيدك إلى منزلك. تستطيعين النوم هنا لو شئت.. لكنك لن تفعلي هذا، أليس كذلك؟

هزت رأسها، وشعرت بغصة في حلقها تمنعها من الرد. كانت تعرف أن عرضه صريح كما هو.. فهذا سيوفر عليه ساعتين من عناء القيادة إذ عليه أن يقلها إلى منزله ثم يعود إلى منزلها.. نظرت إليه فرأت أن وجهه أصبح جامداً.

قال: «كنت على استعداد للنوم تحت سقف واحد مع أندرو يوغت.. أليس كذلك؟»

ـ كان ذلك أمراً مختلفاً.

رأت فكه يشتد..

ـ لأنك كنت تحبينه؟

ابتلعت ريقها بصعوبة، فلا تعرف لماذا تحول فجأة إلى العدوانية، لكنها كانت مستعدة أن تقول له أي شيء سوى الحقيقة..

أجابت: «شيء من هذا القبيل».

لن يعرف أبداً أن الحب الذي أحست به لأندرو، لا يقارن أبداً بهذا الإحساس الجديد الذي استيقظ في أعماقها.

في طريق العودة إلى شقتها، قال لها ڤيك إنهما وبسبب اضطرارها لترك شقتها قريباً، سيتزوجان في أسرع وقت ممكن.

ـ أزورك غداً في الصباح الباكر.. وسنسافر إلى «ميدلاين» لنقول لعمتك، ونرى الكاهن ونحن هناك.

بدا لها أن كل شيء يسير بسرعة.. وأحست أنها لم تعد تسيطر على شيء.. وحين أصبحا أمام باب شقتها شعرت بأن ردة فعلها قد بدأت تتبلور، ولكن الشعور بالخوف مما هي مقدمة عليه بدأ يخف.. وما إن فتحت الباب وأضاءت النور وارتدت إليه لتتمنى له ليلة سعيدة حتى وجدته ينظر إليها.. وعلى وجهه رقة بالغة.

قال ممازحاً: «هل عاد التردد إليك؟».

ابتلعت ريقها بصعوبة: «قليلاً».

ـ سيكون كل شيء على ما يرام زاندرا.. ثقي بي فقط!

وضغط على ذراعها قليلاً، ثم تركها وذهب.

أمضت زاندرا ليلة مضطربة استيقظت فيها على رنين المنبّه.. كان تفكيرها مشوشاً بسبب ساعات من النوم المضطرب.

هل قالت لڤيك حقاً إنها ستتزوجه؟

لماذا؟ إنها لا تكاد تعرفه.. كيف لها أن تفكر في الإقدام على أمر كهذا..؟ توقف قلبها دفعة واحدة لأنها تدرك أنها قد تضطر للقول لڤيك إنها لن تستطيع تنفيذ ما اتفقا عليه.

لكن ما إن رأته بباب دارها حتى عرفت أن حبها له ما زال يعمّ قلبها، وأنّ من المستحيل عليها أن تقول له الكلمات التي حضرتها جيداً..

سألها بعد التحية:

ـ هل اتصلت بالسيدة سمولبورن لتخبريها بقدومنا؟

ـ فكرت.. أن تفاجئها!

راحت جوارحها وأحاسيسها تصرخ بها: أخبريه.. أخبريه.. أخبريه أنك لن تتزوجيه.. أخبريه قبل أن يصحبك إلى سيارته.. لكن الكلمات

أبت الخروج من فمها.. وكانا صامتين والسيارة تتجه بهما إلى «ميدلاين».

بعدما خلّفا لندن وراءهما شرع ڤيك يحدثها.. وبما أن بعض ملاحظاته كانت تتطلب ردّاً، سرعان ما وجدت زاندرا نفسها تتحدث معه بانطلاق وبدأ الإحساس بالذعر الذي شعرت به عندما فتحت له الباب يتلاشى.. وكانت كلما ابتعدا، كلما تساءلت لماذا تستمتع فعلاً برفقته.. وأدركت أيضاً أنها لولا اكتشافها المدمر بأنها تحبه لقالت له هذا الصباح إنها غيّرت رأيها.. وبدا لها كل شيء خرافياً.. وبما أنها تحبه، لم تستطع إلا أن تتوق إلى قضاء بعض الوقت معه كزوجة.

راحت زاندرا تكرر بينها وبين نفسها: سيكون كل شيء على ما يرام.. رنت بطرف عينها إلى الرجل الذي وعدته أن تتزوجه فأحس بنظرتها إليه وأدار رأسه إليها، وكأنما عرف ما تفكر فيه، فلما ابتسم لها مطمئناً تقلصت معدتها.. فسارعت تنظر إلى خارج النافذة خائفة أن ترد له ابتسامته لئلا يقرأ المزيد من أفكارها، ويكتشف بالضبط كم تؤثر فيها ابتسامته.

لم يكن هناك مجال لوصف السرور الذي عمّ وجه أليس سمولبورن حينما سمعت باقتراب موعد الزفاف... وانقلبت دهشتها لزيارتهما إلى ذهول مطبق بعدما سمعت ڤيك يقول إنهما هنا لغرضين، الأول لرؤيتها، والآخر لإجراء الترتيبات لزفافهما.

احتضنت ابنة أخيها وصاحت:

- آه.. زاندي.. زاندي! ما أشد سعادتي! عرفت أنك ستجدين الحب يوماً!

لم تتصور زاندرا يوماً أن خداع عمتها قد يثقل ضميرها إلى هذا الحد.. فقد طفت موجات من الإحساس بالذنب عليها عندما رأت العمة تمسح دموع السعادة من عينيها.. وكافحت لتصوغ الكلمات.. لكنها لم تستطع، وكانت شاكرة ڤيك لأنه دعمها بذراعه التي وضعها حول كتفيها

وكأنما يقول لها أن لا تضعف.. فكل هذا لخيرهما.

سرعان ما استعادت السيدة سمولبورن رباطة جأشها. وقبل أن يستطيعا إيقافها، كانت تتكلم عن كل ترتيبات الزفاف.

- .. وسأتصل بمؤسسة تقديم الطعام والشراب، و...

ومع أنها علمت أن ما ستقوله سيمحو السعادة عن وجه العمة، اضطرت لإيقافها:

- عمتي! عمتي.. أنا آسفة، لكننا قررنا.. ألا نقيم زواجاً كبيراً..

ماتت الكلمات على شفتيها، فتطلعت إلى ڤيك لمساعدتها، ولم يخذلها:

- نريد أن نتزوج فوراً سيدة سمولبورن.. والواقع أنني لا أطيق الانتظار حتى تنتهي الترتيبات التي يتطلبها الاحتفال الكبير.. فإن كنت لا تمانعين أرغب أن يكون زفافنا هادئاً.

استسلمت أليس سمولبورن ولم تقاوم، وبعدما ابتسمت لڤيك، ارتدت إلى ابنة أخيها تسأل بلطف:

- هل ستدعين والديك عزيزتي؟

إنه سؤال لا بد منه.. مع أنها تعرف أكثر من غيرها مدى المأساة التي عانت منها زاندرا في طفولتها..

لم تفكر زاندرا كثيراً في الرد.. بل قالت بجرأة «لا!»

تعرف عمتها كل شيء عن أبويها لذا لن تغضب لردها.. لكنها أحست بنظرة ڤيك مصوّبة إليها ولم تستطع رد نظرته.. إذ كيف لها أن تخبره عن الكراهية التي يكنها والداها لبعضهما بعضاً؟ وكيف تقول له إنها لا تطيق أن تؤثر مشاعر الكره هذه على زفافها؟

تبع رفضها صمت متوتر.. ورغماً عنها، وجدت عينيها تتجهان إلى ڤيك، فلاحظت التفكير المرتسم على وجهه.

قالت: «لا أعتقد أنهما سيأتيان على أي حال».

قالت العمة بلطف:

ـ ولا أعتقد هذا أنا أيضاً.

بعد الغداء، ذهب ڤيك وزاندرا لرؤية الكاهن، السيد مورو.. وكان مسروراً برؤية زاندرا. هناك تم الاتفاق على أن يزوجهما بعد أربعة أسابيع.

قال ڤيك لزاندرا وهما يغادران منزل الكاهن:

ـ بما أنني قريب من الكولونيل تايلستوك أود زيارته، فمارتشيرو لا تبعد سوى عشرة أميال عن هنا.

قالت زاندرا التي حسبته يريد الذهاب وحده:

ـ أستطيع العودة إلى منزل عمتي سيراً على الأقدام.

ـ وأي نوع من الخطيبات لدي؟ سترافقينني.

أعجبت زاندرا بالكولونيل الذي أطرى جمالها وغمز بعينيه لڤيك ثم قال صادقاً وهو يهنئ ڤيك بعروسه، مضيفاً:

ـ لو كنت أصغر سناً بثلاثين عاماً، لجعلتك تلهث وراءها ڤيك.

لم يبقيا معه طويلاً، وفي طريق العودة إلى ميدلابن، ذكر ڤيك أنه دعا الكولونيل إلى حفل الزفاف. وقبل أن تترجل من السيارة مكثا بضع دقائق وهما يتودعان.

أجابت: «أنا مسرورة لأنك دعوته.. إنه رجل طيف أحببته».

ثم عنّت على بالها فكرة.. إنها تريد من الكولونيل أن يرافقها إلى المذبح، ليقدمها إلى عريسها.. لكنها لم ترغب في تقديم هذا الاقتراح في هذا الوقت المتأخر، فقد لا يكون الكولونيل مستعداً حالياً.

ـ أنا..

صمتت.. فسألها: «أنت».

ـ كدت أقول إنني أحب أن أطلب منه تقديمي لك على المذبح. لكن...

ـ ولماذا لم تطلبي منه؟

ـ أنا لا أعرفه جيداً.. وقد لا تعجبه الفكرة.

ـ بل سيكون مغتبطاً.. سأطلب منه لو شئت.

ـ حقاً؟!

عندما رأى مدى لهفتها أوقف السيارة جانباً، وارتد ينظر إليها:

ـ ألا تعتقدين أنها ستكون إهانة لوالدك؟

ـ ليست المسألة مسألة إهانة له.. لكنني أشك أن أمي أو أبي سيهتمان كثيراً.

اهتز صوتها وهي تكبح دموع الإحباط.. في عيد الميلاد أرسلت والدتها بطاقة معايدة أما والدها فلم يُزعج نفسه.. والبطاقة من أمها لم تكن لترسلها، لولا أنها قرأت العنوان صدفة.. أما ذكرى ميلادها، فهي منسية كلياً.

أضافت: «أعرف أن هذا قد يبدو أمراً فظيعاً لك.. لكن منذ وعيت على الحياة ووالداي في شجار لا ينتهي.. ولكنهما بقيا معي من أجلي فقط.. ولم يمر يوم واحد دون أن يذكراني بهذا.. ولم أكن قط شاكرة كما كنت يوم انفصلا وذهبت للعيش مع عمتي».

وضع ڤيك يده تحت ذقنها، وأجبرها على النظر إليه.. تفرس في عينيها، وبدا أنه رأى في عمقهما شيئاً من تلك الطفلة الحساسة التي كانت عليها يوماً.. فما زال هذا موجوداً في الحب الذي تكنّه لعمتها.. ألن تتزوجه أساساً لإنقاذ عمتها من المزيد من القلق عليها؟

أردفت بسرعة: «أعرف أنك تظنني قاسية القلب. لكن لو حضر والداي العرس لتشاجرا.. و.. و.. أنا أريد أن يكون يوم زفافي جميلاً..».

صمتت فجأة، وقد راعها ما قالت.. لأنها لا تريد أن يراها ڤيك قاسية القلب.. فهل فضحت نفسها في آخر جملة قالتها؟ كانت هذه اللحظات لحظات عذاب وسرعان ما شعرت باللون الأحمر يزحف من تحت بشرتها..

قال ڤيك بهدوء: «إذا كان عدم حضور والديك يجعل يوم زفافك جميلاً.. فليكن ما تريدين».

وضع ذراعه بخفة حول كتفيها، وجذبها إليه. اتسعت عيناها ذهولاً ولما رأت رأسه ينحني نحوها تملكها شيء من الذعر فقد حسبته يهم بتقبيلها.. لكن قبلته لم تصل إلى حيث ظنت، بل كانت أخفّ لمسة ممكنة طبعتها شفتاه على وجنتيها.. ثم أبعد ذراعه عنها وشغّل السيارة وانطلق بها.

لم يكن لديها وقت للتفكير في ما حدث بعد ذلك، فقد عادا إلى منزل العمة لتناول الشاي بسرعة، ثم ما لبثا أن توجها إلى لندن.. ولم تجرؤ زاندرا على الاستسلام لأفكارها لئلا تقول شيئاً آخر دون تفكير.

رفض ڤيك عرضها للدخول:

- لن أستطيع.. فعليّ القيام برحلة جديدة قبل فجر الغد.. كما عليّ القيام باتصالات هاتفية قبل أن أخلد إلى النوم.

تساءلت زاندرا عما إذا كان سيتصل بوالده في سويسرا.. ثم رفعت يدها تسند خدها، وبدأ وهج السعادة يحترق في أعماقها.. كانت واثقة أن قبلته تعني أنه فهم سبب عدم رغبتها في دعوة والديها إلى حفل الزفاف.. ثم فكرت في أنها لن تندم على قرارها الزواج به.. إنها تريد نصيباً صغيراً من الجنة، فهي تحب ڤيك سبنسر والحصول على نصف رغيف أفضل من عدم الحصول على شيء.

تسابقت الساعات قبل آخر رحلة لها قبل الزواج. كان عليها أن تشتري شيئاً لترتديه وقت الزفاف، وبعد بحث طويل وجدت ما تبحث عنه بالضبط.. فستان أبيض محبوك بالقطن، ومخطط بالساتان الأبيض، بدت فيه ناعمة، محتشمة، وأنيقة في آن.. كان الجزء العلوي منه ضيقاً وكانت أكمامه طويلة وله قبعة صغيرة.. كانت راضية عما اشترته، وعادت إلى شقتها تفكر في أنها لن تنتهي من توضيب حقيبتها في الوقت المناسب.. كان ڤيك قد أعطاها مفتاحاً لشقته لتضع ملابسها وأغراضها التي لا تريد التخلي عنها.

قبلت عرض كوليت للمساعدة شاكرة.. وبدأت الفتاتان بتفريغ

الشقة.. قالت زاندرا وهي ترفع غلاية الماء الكهربائية، وتشير إلى مكنسة السجاد:

- لن أحتاج إلى هذه أو تلك.

- سأجد من يأخذهما.

بدت الشقة خاوية ساعة خرجت زاندرا إلى عملها.. فمعظم أغراضها الآن باتت في شقة ڤيك.. لن تقضي سوى ليلة واحدة فقط هنا.. وهي الليلة التي ستعود فيها من رحلتها.. ليلة واحدة في سريرها الخاص.. ثم ستسافر إلى العمة أليس لتساعدها في آخر التحضيرات.

كانت رحلة مرهقة جداً.. إنها آخر رحلة تقوم بها تحت اسم الآنسة رودس.. كانت تشعر برغبة كبيرة للعودة إلى شقتها علها تجد هناك ما يخفف عنها هذه الكآبة التي حلت فجأة والتي أضيفت إلى قلقها.. لكن رغبتها في الذهاب إلى الشقة سرعان ما تلقت صدمة على يد زملائها.

قال مهندس طيار:

- لن ندعك تذهبين دون احتفال.

التقط دعوته الكثيرون من الذين لا يحتاجون إلى سبب كبير لإقامة حفلة.. ولأنها تعلم أنها ستفسد عليهم فرحتهم إن لم تفعل ما طلبوه، ذهبت معهم إلى نادي الموظفين، وتحملت مزاح وقرصات زميلاتها لركبتيها غير أنها بعد ساعة تذرعت ببعض الحجج التي مكنتها من النجاة.

لقد خاب أملها لأنها ظنت أن بعض المرح قد يرفع من معنوياتها المحبطة.. ثم يعد أمامها غير ثلاثة أيام على العرس.. وهي أيام ستحتاج فيها إلى الراحة.

بدلت بزتها الرسمية وارتدت روباً.. وراحت تفكر في أن ڤيك سيكون في عطلة كذلك.. وتساءلت عما إذا كان سيسافر لطلب الراحة في مكان ما.. ثم احترقت وجنتاها احمراراً.. هل من المفروض أن تذهب معه؟ عندئذ لم يعد لديها أي رغبة في النوم.. ولكن لا سبب يدفع ڤيك لاصطحابها معه في عطلة.. فما هذا بشهر عسل رسمي.. وهل هو

كذلك؟ آه! لماذا لم تسأله؟ بل كيف ستسأله؟

صدمتها فكرة أخرى.. ماذا إن لم يكن ينوي الذهاب إلى أي مكان؟ ماذا لو كان ينوي البقاء معاً في شقته لمدة أسبوع؟ آه كيف ستتحمل البقاء معه في شقته لأسبوع كامل؟ إنها حتماً متوترة الأعصاب.. من المفترض أن تشعر العروس هكذا.. فتوقفي عن القلق! سيكون كل شيء على ما يرام.

تحركت عقارب الساعة ببطء منذرة بانتصاف الليل.. وفي هذا الوقت كانت تشعر بأن النوم يجفوها فما زال الحال على غير ما يرام.. أعصابها مشدودة من فرط القلق الذي يسببه تفكيرها فيما إذا كانت مقدمة على ما هو صواب.. وصدمتها فكرة مريعة: ماذا لو انتهى بها وبفيك الأمر أن يكرها بعضهما بعضاً؟ في هذه اللحظة شعرت برغبة في البكاء.

حين سمعت صوت قرع الباب، كادت تقع عن الأريكة.. فأعصابها مشدودة إلى أقصى حد.. من بحق الله يزورها في هذا الوقت من الليل؟ كان شعرها قد أنسدل من تسريحته الفرنسية الطراز، وأخذت تدس أطرافاً من هذه الخصلات المنسدلة خلف أذنها، وحاولت إجبار ابتسامة على شفتيها وهي تفتح الباب.

كان يهم بذكر سبب مجيئه ولكنه عدل عن ذلك عندما رأى الجهد الجبار الذي تبذله لتسيطر على مشاعرها..

قال: «ماذا..؟»

لكنها لم تنتظر سماع المزيد.. فهي لا تحتمل أن يراها باكية.. لذا هرعت راكضة إلى غرفة نومها وأقفلت الباب بينهما. وهناك راحت تسعى بيأس للسيطرة على نفسها وفي خضم هذه المشاعر لم تسمع باب غرفتها ينفتح بهدوء.. ولم تشعر بوجود فيك خلفها حتى حطت كلتا يديه على كتفيها وأدارتها لتواجهه.. قال لها بلهجة لطيفة لم تعتقد أنها ستسمعها منه يوماً:

ـ ما الأمر.. زانذرا؟

نظرت إليه كالبكماء.. فلو أتت على ذكر كلمة لعاودت البكاء على كتفه.. ثم جذبها إلى صدره، والتفت ذراعاه حولها.. كان الإحساس بالنعيم الفردوسي، لا يشابه الإحساس بيديه اللتين راحتا تمسحان شعرها حتى هدأت.

حاولت الانسحاب قليلاً عنه، وبدأت تقول:

ـ آه.. فيك.. كنت.. كنت..

لكنها لم تستطع أن تضيف كلمة أخرى.. فعادت للاستسلام إلى أمان ذراعيه.. كيف تشرح شكوكها ومخاوفها لهذا الرجل الواثق المعتد بنفسه؟ هذا الرجل الذي قرر الزواج منها، وتلقى قبولها دون تفكير كبير منها.

أخيراً ابتعدت ذراعاه عنها وكأنه اعتقد أنه ضمها إليه بما فيه الكفاية، وبعد ذلك اقتادها إلى غرفة الجلوس..

قال بهدوء:

ـ أرى أن أعصابك مشدودة.. هلاّ جلست وقلت لي ما الذي يزعجك؟

الآن تشعر وبا للغرابة أن الأفكار الرهيبة التي كانت تتجاذبها ما عادت رهيبة أو كبيرة.. ثم سرعان ما وجدت نفسها تقول له أشياء عما كانت تشعر به..

ـ كنت أفكر في زواجنا.. أنا.. لم أعد أستطع التفكير بوضوح.

جلس إلى الأريكة قربها، وذراعه ما تزال حول كتفيها:

ـ أعتقد أنك متعبة. فعدا التوتر الطبيعي الذي يسبق أي زواج، أنت تشعرين بالذعر وهذا أمر غير مستهجن فنحن لم نلتق منذ أسابيع لذا لا أستغرب أن تكوني قد نسيت شكلي.

إنه مخطىء كثيراً في هذا، لأنها لم تنسَ شيئاً عنه، لكنها لن تقول له هذا..

أردف: «من الطبيعي أن تأخذ شكوكك وهواجسك حجماً أكبر من

حقيقتها.. والتعب لم يساعدك».

كانت زاندرا على استعداد للموافقة على أي شيء يقوله.. وقالت له إنها تشعر بأنها أفضل حالاً بكثير.

قال: «عظيم.. ما رأيك لو أعددت فنجان قهوة لخطيبك قبل أن يسرع بالرحيل؟ سيتكلم الناس عنك لأنك تستقبلين الرجال في مثل هذا الوقت من الليل!»

سارعت زاندرا إلى المطبخ.. إن هذا الذي تراه شخص جديد عليها، وهو محبوب أكثر من ذاك الذي تعرفت إليه.. لكنها لم تجد الشجاعة لتسأله عن مخططاته. غير أن هذا، في الوقت الراهن، لا يقلقها.

بما أن كل المقاعد الأخرى ذهبت، فقد عادت لتجلس على الأريكة إلى جانبه في غرفة الجلوس وإحساس بالخجل يطغى عليها.

ـ آه.. هل هناك سبب خاص لزيارتي؟

ـ لا.. كنت مارّاً من هنا، فنظرت إلى المنزل ولما رأيت النور مضاء تساءلت عما إذا كان هناك مشاكل.. فقررت الصعود لأراك.

كانت مسرورة لأنه صعد.. لكنها لم تعرف ماذا تقول، لذا لاذت بالصمت. وما إن رأت نظراته تجول في الغرفة حتى وجدت لسانها، فعلقت بالقول:

ـ تبدو خاوية الآن.. أليس كذلك؟

ـ لا داعي للقلق.. هي ليلة واحدة.. هل ستذهبين إلى «ميدلاين» غداً؟

ـ هذا صحيح.. كل شيء موضب وجاهز.. لدي فقط بضعة أشياء قبل أن أسلم المفتاح لكوليت.

ـ هل لديك جواز سفرك؟

ـ جواز سفر؟

ـ أجل.. فكرت أن تمضي ليلة في الشقة ثم تسافر إلى سويسرا.. أريد أن يقابلك أبي.

تلاشى كل تجهم زاندرا.. ولم يهمها أنه يريد اصطحابها معه من أجل إراحة أبيه فقط.. إنه يأخذها وهذا هو المهم.. لم تستطع منع الابتسامة التي اتجهت إليه والتي أضاءت عينيها.. فبدت جميلة جداً.. أشاح فيك نظره عنها، فظنت أنها رأت عضلة ترتجف في جانب عنقه. مع ذلك، لم تستطع كبح الكلمات التي خرجت مرتجفة من شفتيها:

ـ لم أعتقد أنك ستأخذني في عطلة معك.

نظر إليها مجدداً وقال:

ـ قمت بأشياء شاذة كثيرة في حياتي.. لكن لم يخطر ببالي قط أن أذهب إلى شهر العسل دون عروس.

انتظر متوقعاً أن يرى وجهها ينور.. ثم ابتسم لها الابتسامة التي طالما قلبت قلبها رأساً على عقب..

سأل بعدما وقف:

ـ هل أنت على ما يرام الآن؟

ردت: «أنا بخير».

قال: «حتى يوم الثلاثاء إذن.. زاندرا».

ثم أصبحت بمفردها.

* * *

٥ ـ كآبة وفرح

هلّ يوم زفاف زاندرا مشرقاً لا غيوم فيه.. ودخلت أليس سمولبورن غرفة نومها تحمل الفطور على صينية.

اعترضت ابنة أختها: «أوه.. عمتي! ما كان يجب أن تفعلي هذا».

لكن ابتسامة العمة الصادقة أسكتتها وجعلتها تضع ذراعيها حول العمة شاكرة.

تصرفت العمة بطريقة هادئة حتى أنها لم تبك ذلك الصباح.. لكن، حين شاهدت ابنة أخيها في ثوب العرس الأبيض، لم تستطع أن تحبس دموعها عن الانهمار.. قالت وهي باكية:

ـ زاندي.. تبدين جميلة!

احتضنت زاندرا عمتها، ثم رنّ جرس الباب الأمامي فمضت لحظة التوتر.. وكان الواصل هو الكولونيل تايشتوك أما الدكتور اليكس بايبر وهو صديق ڤيك فكان أشبين العريس.. في تلك اللحظة تساءلت زاندرا إن كانت زوجة أبيها ستكون في الكنيسة غير أنها لم تستطع طرح هذا السؤال.

تجمع الجيران وهم من أهالي القرية التي ترعرعت فيها زاندرا، أمام مدخل الكنيسة القروية الصغيرة.. راحت صيحاتهم تلاحقها: حظ سعيد.. و.. أليست جميلة؟.. ثم لم تعد تعي شيئاً عدا ڤيك.. عرفت أنه أحس بوصولها لأنها رأت الرجل الواقف إلى جانبه ينظر إليها، ثم يستدير ليقول له شيئاً. لكنه لم يستدر ثانية، مع أنها كانت بحاجة يائسة

إلى رؤية الطمأنينة في عينيه الرماديتين.

جاء صوت ڤيك ثابتاً واضحاً وهو يتلفظ بقسم الزواج، أما صوت زاندرا فكان مرتعشاً أولاً، ثم لمّا شعرت بيده الدافئة تمسك بيدها ثبت صوتها أيضاً وفي تلك اللحظة عرفت أن كل شيء سيكون على ما يرام. وتلاشى الارتجاف من صوتها.

نظر إليها وهو يضع الخاتم في إصبعها.. راحت عيناه تستوعبان طهارتها في هذا الثوب الأبيض النقي وتتأملان شعرها النظيف البرّاق تحت قبعتها.. وجعلته ابتسامتها يشد قبضته على أصابعها التي يمسك بها، ثم يسترخي.. وتتابعت مراسم الزفاف.

رتبت أليس سمولبورن أمر حضور مصور ليصورهما وهما يخرجان من الكنيسة.. ووجدت زاندرا بضع لحظات لتلتقط فيها أنفاسها فهي الآن متزوجة بالرجل الواقف إلى جانبها والذي يضحك لنكتة قالها له صديقه اليكس بايبر.

ثم بدأ التعارف العام، وفي هذا الوقت حرص ڤيك ألا تشعر العمة أنها مستبعدة.. تقدمت الفتاة الأنيقة الجميلة الواقفة إلى جانب الكولونيل، إلى زاندرا، وقدمها ڤيك باسم سوزي التي تصغر ڤيك ببضع سنوات. ربما هي في الثالثة، أو الرابعة والثلاثين.. قالت سوزي وليس في صوتها أثر الطمأنينة التي كانت تبحث زاندرا عنها:

ـ يسرني لقاؤك زاندرا.. وأنا متأكدة أنكما ستجدان السعادة.

وقبلت خدّي زاندرا.

راح الجميع يتقدمون نحوها ليهنئوها بنفس الطريقة.. ثم أصبحت فجأة بمفردها مع ڤيك في سيارته التي انطلقت بهما إلى فندق على الطراز القديم ويقع على بعد سبعة أميال، وهناك حجز ڤيك غرفة خاصة لمأدبة الغداء التكريمية.

بدت هادئة وهما منطلقان.. ولكن رأسها كان منشغلاً بفكرة أن الجميع عانقها مهنئاً.. الجميع.. إلا ڤيك.. صحيح أن الأمر لم يهمها

كثيراً.. لكن كان عليه معانقتها على الأقل من أجل المظاهر.. ولا شك أن العمة لاحظت ذلك.

أجفلها سؤاله: «ما بك؟»

ردت بهدوء: «لا شيء».

انعطف بالسيارة وسلك طريقاً فرعياً.. فقالت:

ـ هذه ليست الطريق إلى..

قاطعها ضاحكاً: «أعرف هذا».

ثم أوقف السيارة أمام حافة مرج أخضر، وعرفت أن ردها المقتضب أزعجه، وعرفت أنه سيستدير لينظر إليها..

ـ زاندي.

قالها بهدوء.. ولم يزد. عرفت أنه ينتظرها لتستدير وتنظر إليه.. وعرفت أيضاً أن أياً منهما لن يستفيد من تجاهل السؤال غير المطروح.. ارتدت ببطء تجبر نفسها على النظر في عينيه اللتين كانتا تبرقان بشكل خطير، لكنه لم يتركها تتراجع عن النظر إليه.

قال لها بحدة: «لا أقبل أن يكون ردك «لا شيء».. وأرفض أن يقع بيننا شجار في الساعة الأولى على زواجنا.. إذن، هيا أخبريني.. ما الذي يزعجك؟»

فتحت فاها لكنها لم تتمكن سوى من قول: أنا.. ثم أطبقته ثانية.. لن تستطيع القول لهذا الزوج الحقيقة الكاملة غير المبهرجة، من أنها منزعجة لأنه لم يقبلها.. لكنها تسيت أنه يمتاز بقدرته على معرفة ما يجول في رأسها بالضبط.

ـ إن كنت مغتاظة لأنني لم أقبلك في الكنيسة كما هي العادة فسأخبرك الآن لماذا لم أفعل.. لم يكن ذلك بسبب أنني لم أفكر فيها، بل....

صمت.. وبدا متوتراً للحظة، ثم وكأنما يبحث عن كلمات يستطيع صوغها بلطف.. ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً بل تغيّر صوته الذي فقد شيئاً من خشونته، وقال:

ـ يا إلهي زاندرا! ليس لديك فكرة كم تبدين.. جميلة جداً.. صغيرة جداً.. وعذراء جداً!

تورد وجهها، والسبب معرفتها أنه يراها جميلة أكثر من أي شيء آخر.. وشهد قبل احمرارها، ثم قال لها بصوت خالٍ من الخشونة:

ـ ما أحاول قوله.. إنك فتاة متزمتة.. وأنت الآن متزوجة بي.. وكلانا يعرف أن زواجنا كان بسبب سلسلة من الظروف.. لكن بعد بضع ساعات سنعود إلى شقتنا، ونصبح بمفردنا.. ومن الطبيعي أن تشعري بالارتباك عندما نصبح معاً على انفراد الليلة، ورغم رغبتي الكبيرة في تقبيلك بعد مراسم الزواج فضّلت الامتناع عن ذلك لئلا أجعلك تخشين من حدوث ما هو أكثر من قبلة بعد انفرادنا. هل فهمتني زاندرا؟

ـ لم أفكر في هذا.

آه! ليت تفكيرها يسبق عواطفها! إنه على حق طبعاً.. فعدا عن انتقالها حديثاً إلى شقة جديدة مختلفة، ونومها في فراش غريب، كانت تعرف أنها ستشعر بالقلق ما إن تنفرد به وسط ظلام الليل.

ثم أردف: «أعرف أن عمتك ليست هنا لترانا.. لكن بما أنك أصبحت تعرفين الأسباب الآن.. فلا بد أن نختم الاتفاق».

التفت ذراعه حول كتفها، ثم شعرت به يجذبها إليه.. وكانت قبلته لطيفة أفضل مما حلمت به يوماً.. وعرفت أنه كان يكبح نفسه، ثم اشتدت يده الأخرى على خصرها، وتراجع.

فتحت زاندرا عينيها، وظنت أنها رأت ناراً مشتعلة في نظرته.. واعتقدت أنه على شفير أن يقول لها شيئاً ما.. كانت ستوافق على أي اقتراح يقترحه.. لكنه قال بهدوء:

ـ حان الوقت لتنضم إلى الآخرين، ألا تظنين هذا سيدة سينسر؟

لا شك أن الضيوف وصلوا إلى الفندق. وهناك وجدوا الجميع مبتسمين.. وقسر اليكس پايپر ابتسام الجميع بالقول:

ـ الآن ها هي فتاة يبدو عليها أنها تلقت قبلتها!

نظرت زاندرا إلى عمتها فوجدتها تضحك مع الآخرين.. وأسعدها هذا.

بعد وجبة الطعام التي دامت طويلاً، أخذ ڤيك زاندرا إلى منزل عمتها لتغير ملابسها.. ارتدت بزّة من الصوف بلون الخردل. الثياب الداخلية الحريرية التي ستأخذها معها أشعرتها بأنها فعلاً عروس، وعدا هذا الجهاز اشترت عمتها فساتين شفّافة للنوم ولكل واحد منها روباً يماثله.. حين رأت ثوب النوم الأبيض المطرز بالدانتيل تورد وجه زاندرا! يا للعمة أليس الرومانسية! لا تتصور نفسها وهي ترتدي هذا الفستان.. ولكنه هو والأثواب الأخرى سيكون تغييراً مهماً عن البيجاما العادية.

ما إن وصلا إلى شقة ڤيك حتى حمل أغراضها وحقائبها إلى غرفة النوم المخصصة لها.. ولحقت به تشهق ذهولاً.. فقد اختفى لون الجدران الرمادي الكئيب وحل مكانه لون أبيض وأزرق، وستائر ساتان زرقاء جديدة.

همست: ڤيك.. هل كان.. أفعلت كل هذا من أجلي؟

رد بلهجة الأمر الواقع:

ـ لم أعتقد أن اللون الرمادي أعجبك.. سأصنع بعض القهوة.

وخرج من الغرفة.

أثر فيها تفكيره في راحتها.. وتمنت لو تستطيع تقديم ما هو أكثر له.. وكان لديها الفرصة لأن تحضر وجبة سريعة فيما بعد.

في الحادية عشرة بدأت بالتثاؤب، ما ألذّ النوم الآن! لقد سرقت منها أحداث اليوم راحتها.. لا تدري كيف تقول له إنها تريد الذهاب إلى الفراش. لكنه سألها: «متعبة؟»

ـ قليلاً..

ـ لن أنام الآن.. فإن أردت استخدام الحمام أولاً..

كان يحاول التخفيف من توترها.. هذا ما أدركته وهي تستحم.. بعد الاستحمام ارتدت ثوب نومها الجديد الذي انتقته وهو الثوب الوردي

الشفاف... بدت فيه بعد الحمام مغرية ووجها يخلو من الماكياج.. ودخلت إلى غرفة الجلوس لتتمنى ليلة سعيدة لڤيك قبل الخلود إلى غرفة نومها.

وقف على قدميه وهي تدخل.. ونظر إلى مظهرها النظيف وإلى ثوب نومها الدافىء.. ثم قال:

ـ وكأنك في السادسة عشرة.

تقدم نحوها وأحاط وجهها بيديه، ثم أردف:

ـ شكراً لك لهذا اليوم.. تصبحين على خير.

بقيت مستلقية في سريرها، تفكر في أحداث اليوم.. أخيراً تنهدت تنهيدة رضى وانقلبت إلى جانبها وغطت في نوم خال من الأحلام.

أيقظتها يد من نومها العميق.. مرت لحظات لم تدر فيها أين هي.. وشعرت بالخوف يتملكها، فعقلها الذي خدّره النعاس لم يميز الوجه المنحني فوقها.

غادرت النظرة الرقيقة وجه ڤيك لأنه رأى ما علا وجهها من خوف، وكانت البرودة في عينيه وهو يقول:

ـ انزعي نظرة الذعر هذه عن وجهك.. لم آت إلى هنا لأطالب بحقي الزوجي.. الساعة الآن السابعة والنصف.. ولدينا موعد بعد ساعة مع الطائرة التي ستحملنا.

وأغلق الباب خلفه بحدة.

استعادت زاندرا وعيها بسرعة.. وجلست في الفراش، تتأوه وتنظر إلى فنجان الشاي الذي كان بانتظارها على الطاولة الصغيرة. أوه.. يا إلهي.. ماذا فعلت؟ لن تستطيع أبداً أن تفهمه أنها تلفت صدمة حينما شاهدت رجلاً في البيجاما، رجلاً لم يكن وجهه واضح المعالم لها بسبب دماغها المخدر بالنعاس.

عاد ڤيك ذلك الطيار الصعب المراس الذي طالما كان عليه.. ولكنها رفضت أن توضع عند حدها، فكان أن بذلت ما في وسعها لاستعادة الرفقة

التي كانت تنمو بينهما. لكن بعد عشر دقائق من الحديث عن أشياء محددة، وبعدما تلقت ردوده المقتضبة، وجدت غضبها يتصاعد.. إن لم يكن يريد الحديث فليكن له ذلك.

كانا سيمكثان ليلة في فندق «زوريخ» على أن يتما ما تبقى من الرحلة بالقطار، في اليوم التالي.. وبعد وصولهما إلى الفندق، اكتشفت زاندرا أنه حجز غرفتين متجاورتين.. ولكنه دخل إلى غرفتها معها، ليلقي نظرة على الغرفة التي يريد أن تكون مريحة، ثم اختفى سالكاً الباب المشترك بين الغرفتين وأقفله بهدوء خلفه.

سمعت صوت باب ينفتح، ثم وقع أقدام ثابتة تتحرك مبتعدة... لقد خرج! كيف يستطيع هذا؟ حسناً. إن ظن أنها باقية في غرفة نومها بانتظار عودته، فهو مخطىء كثيراً! ستمهله بضع دقائق ليبتعد، ثم تخرج هي أيضاً.

زوريخ مدينة نظيفة.. أعجبت زاندرا. فيها الكثير من المحلات التي تستطيع التجول فيها.. أبعدت ڤيك بحزم عن أفكارها، وبدأت الاستمتاع بوقتها.. وهل هناك امرأة تستطيع مقاومة التفرج على قسم الملابس النسائية في المخازن الكبرى؟.. كم كانت تتمنى لو تشتري لنفسها شيئاً.. لكن ڤيك فاجأها في آخر لحظة بخبر سفرهما إلى سويسرا، لذا ليس معها أية عملة سويسرية.. هكذا، ومع أنه لفت انتباهها أكثر من نسيان، فقد أدارت له ظهرها على مضض.

لم يكن لديها فكرة كم مضى من وقت وهي في الخارج. لكن ما الذي يهم؟.. فلن يفتقدها ڤيك.. بل لا تظنه عاد إلى غرفته.

ما إن خطت إلى غرفتها، حتى خرج ڤيك من غرفته.. ولم يحاول إخفاء الثلج في عينيه.. ولأنها توقعت المتاعب، رفعت ذقنها إلى الأعلى ثم سمعت صوته فإذا به بمائل عينيه برودة:

- إلى أين ذهبت بحق الجحيم؟

كانت على وشك أن ترد بحدة: خرجت! لكن نظرة أخرى إلى وجهه

جعلتها ترد:

- أتسوق.

- أعتقد أنه لم يخطر ببالك إخباري بأمر خروجك؟

ردت بحدة مماثلة:

- أنت لم تخبرني أنك خارج.

- لم أخرج إلا لأخذ لائحة بمواقيت القطارات، ولكنني أمضيت ثلاث ساعات أدور أتساءل أين اختفيت.

سرعان ما شعرت بالندم.. كيف ظنته غير مهتم هكذا بحيث يخرج ويتركها دون أن يقول لها كلمة؟

- أنا آسفة ڤيك.

هل هذه حقاً فرصة لتجميل الموقف بينهما؟

لكن أملها باء بالفشل.. إذ لم يكن صوته هادئاً حين سأل:

- وأين هو ما لم تستطيعي الانتظار لشرائه؟

- لم أشتر شيئاً. لم يكن لدي وقت للحصول على نقد سويسري.

رأت يده تمتد إلى محفظته، ولم تكن مستعدة لسماعه يقول:

- لقد بدلت ما يكفي من استرليني بنقد سويسري لنا معاً. كنت أنوي أن أعطيك مبلغاً قبل سفرنا هذا الصباح.. لكنني نسيت.

تعرف سبب نسيانه، لكن حين تقدم ليعطيها حفنة الأوراق النقدية، عرفت أن لا شيء سيقنعها بأخذها.

- ليس لدي ما يكفي من استرليني بوازي ما معك.

مرت نظرة ذهول على وجهه:

- يا إلهي! أنا لا أريد منك أن تردها لي! أنت زوجتي زاندرا!

رمى المال على سريرها وقال باحتقار: «يا للنساء!»

وعاد إلى غرفته يصفق الباب خلفه.

عندما حان وقت الاستعداد للعشاء كانت زاندرا قد هدأت.. لم تر ڤيك منذ خرج من غرفتها. ستضطر إلى استخدام شيء من هذا المال،

فمعجون أسنانها لا يكفي لأكثر من استخدام لمرة واحدة وتفضل الموت على أن تطلب استخدام معجون أسنانه.

كانت قد استحمت وارتدت الروب فوق ملابسها الداخلية وجلست أمام طاولة الزينة تضع ظلال العيون، حين انفتح الباب المشترك بين الغرفتين.. وعرفت أن ڤيك يقف هناك.. لكنها لم تكن راغبة في النظر إليه، وأحست بيدها ترتجف وهو يراقبها ما يقارب الدقيقة رافضاً التقدم أكثر إلى الغرفة.

ـ كم سيلزمك من وقت لتنهي هذا؟

ردت دون النظر إليه:

ـ سأكون جاهزة بعد عشر دقائق.

ـ هه.. هذا يعني عشرين دقيقة.. أتمانعين أن أنتظرك في المقهى في الأسفل.

لم تجد أية تسلية لشعورها بأنها بدأت تضجره.. وكان ردها: «أبداً..» واضطرت إلى النظر إليه لأنها سمعته يتنفس بحدة.. ثم أشاحت نظرها بسرعة إذ لم تعجبها البتة النظرة التي طالعتها: كانت نظرته تقول إنه يود لو اتخذ معها إجراء صارماً.. وليس لديها فكرة عما هو. أيهزها؟ يقبلها؟ وأقفل الباب.. فأصبحت وحدها مجدداً.

بعد عشرين دقيقة بالضبط، دخلت زاندرا إلى المقهى حيث رأت ڤيك.. كان يتحدث إلى إحدى أكثر الشقراوات جاذبية، وأحست بالغثيان يتصاعد وهذا ما صدمها.. أدركت أنها الغيرة البحتة ولكنها حاولت طمس هذا الإحساس.. كان ڤيك ومرافقته، بكل بساطة، أجمل شخصين في الغرفة.

ما إن شاهدها حتى وقف منتظراً انضمامها إليهما.

قال: «أخيراً حبيبتي.. أريد منك أن تتعرفي إلى صديقة قديمة».

لا شك في أن له صديقة بهذا الجمال.

تبين لها أن جولي بيفرتون تربّت معه، وبعد ما تفرست فيها جيداً

عرفت أنها تبلغ الثلاثين..

قالت جولي:

ـ ما أروع أن نلتقي هكذا!

بدا لها ڤيك مسروراً وقد دعاها لتنضم إليهما للعشاء.

حاولت زاندرا دس بعض الدفء في صوتها وهي تحدث جولي، وظنت أنها تمكنت من هذا مع أن جولي لم تكن مهتمة كثيراً إذ كانت تدير أطراف الحديث وتسيطر على ڤيك.. وكلمة «أتذكر» تخرج منها كل خمس دقائق، وهذا أشعر زاندرا بأنها ضيف غير مرغوب فيه على هذه المائدة.

أطلقت جولي مرة أخرى كلمة «أتذكر» بحيث ظنت زاندرا أن أحداً منهما لم يلحظ تثاؤبها.. لكنها سمعت ڤيك يقول:

ـ هل أنت متعبة حبيبتي؟

أدركت أنه يكلمها.

فاعترفت: «متعبة قليلاً.. كان الوقت متأخراً حين نمت ليلة أمس».

طغى اللون القرمزي على كل جزء من بشرتها، وأحست أنها تكاد تحترق لأنها أدركت المعاني من وراء كلماتها.. فليلة أمس كانت الليلة الأولى في شهر عسلها.

كانت محرجة بشدة بحيث لم تجرؤ على النظر إلى ڤيك ثم رأت جولي تبتسم.. ثم نظرت إليه، فرأت نصف ابتسامته قد انقلبت إلى ضحكة.

قال وهو ينظر إلى قهوته التي لم تنته بعد:

ـ إذن اصعدي إلى الغرفة زاندرا.. لن أتأخر كثيراً.

وجدت نفسها واقفة وڤيك إلى جانبها.. وتمتمت: «ليلة سعيدة..».

وسارعت إلى الخروج.

عندما وصلت إلى غرفتها، لم تشعر أنها أفضل حالاً.. لكنها هدأت

قليلاً وراحت تستعد للنوم، وأحست بنعومة غلالة نومها الفضفاضة الشفافة حول جسدها. صحيح أنه ثوب نوم قد لا يصلح لشهر عسل، ولكنه ليس زواجاً عادياً. ولم تستطع سوى أن تتساءل لماذا لم يتزوج جولي التي تبدو أكثر رغبة لملء هذا الدور.

نبهتها حركة في الغرفة المجاورة إلى أن ڤيك وصل.. فجأة تلاشى كل شعور بالكآبة من نفسها وحل محله شعور بالفرح.. فڤيك لم يبق مع جولي وقتاً أطول مما يجب.. انفتح الباب وهي تقف تراقبه.. ووقف ڤيك هناك، دون أن يبدو على وجهه أثر للفظاظة أو الخشونة كما حدث في آخر مرة فتح فيها الباب.

سألها بلطف: «ألم تنامي بعد؟ خلتك متعبة بسبب تأخرك في النوم ليلة أمس».

طغى اللون الأحمر على وجهها.. فقال:

ـ أجل.. بإمكانك الاحمرار خجلاً.

وكادت تقسم أنها رأت بريقاً ممازحاً في عينيه وهو يقول هذا!

قالت: «ڤيك.. بشأن ما جرى هذا الصباح.. أرجوك أصغ إليّ ڤيك.. حين أيقظتني هذا الصباح.. كنت نصف نائمة.. ولأنه لم يسبق أن أيقظني رجل، لم يستطع عقلي الغارق بالنعاس أن يعرف وجهك.. كنت في سرير غريب وفي غرفة غريبة، و... وكان هناك ذلك الرجل الذي ينحني فوقي.. ألا.. ألا ترى ڤيك.. لم أكن أعرف أنه أنت».

ما إن أنهت جملتها حتى أحست بأنها بلهاء.. فقد كانت مقتنعة أنه لم يكن مهتماً بما شعرت به ذلك الوقت.

ترك مكانه قرب الباب.. وتقدم ليضع يديه بخفة على كتفيها.. وعندئذٍ أدركت أنها لم تجعل نفسها بلهاء البتة.. فقد قال:

ـ أشكرك لأنك أوضحت لي هذا كله زاندرا.. أعترف أن رؤيتي الرعب في عينيك هذا الصباح، أثارني.. ظننت أننا كنا متفقين كلياً ليلة

أمس.. وحسبتك بتّ تتقين بي.. انكماشك مني هذا الصباح وكأنني حيوان مفترس يحاول اغتصابك أصابني بالغثيان.

رفعت بصرها إليه، وأدركت أنه شخص حساس للغاية..

أردف يبتسم لها: «بما أننا صادقان سأعترف لك أن من السابق لأوانه أن أحصل عليك بالقوة».

احترق وجهها خجلاً:

ـ ما كنت لتجرؤ!

ـ ما كنت لأجرؤ؟ ومن كان سيمنعني؟

عرفت أن قوتها لا تقارن أبداً بقوته.. وشحب لونها عندما فكرت في ما قد يحدث.. إنها تحب هذا الرجل الذي تزوجته.. وتريد من كل قلبها أن تكون زوجته.. لكن إن أخذها في ثورة غضب، فسيكون ذلك نهاية لزواجهما قبل أن يبدأ.

قال بهدوء:

ـ لا تقلقي.. لأن ذلك لن يحدث.. أليس كذلك؟

ترك كتفيها وارتد على عقبيه.. وكانت زاندرا مسرورة من نفسها لأنها وجدت الشجاعة لتوضح له ردة فعلها وهذا ما خفف من حدة التوتر بينهما.. غادرا زوريخ دون أن يريا جولي مرة أخرى، ثم وصلا إلى «دافوس» ومن هناك توجها بالتاكسي إلى الفندق الذي حجز فيه ڤيك جناحاً كاملاً فيه غرفتا نوم وغرفة جلوس.. بعدما اختارت غرفتها بدأ كلاهما بإفراغ حقائبه.. إفراغ حقائبها لم يستغرق طويلاً، لذا استغلت الوقت لتغيير ثياب السفر التي ترتديها واستبدلتها ببزة خضراء وما لبثت أن انضمّت إلى ڤيك في غرفة الجلوس. رأت عيناه تطوفان بها، وأملت أن يكون قد رآها جميلة المظهر كما قال لها انعكاسها في المرآة..

قال: «فكرت أن نزور أبي بعد ظهر اليوم.. لقد كلمته في الهاتف بالأمس، وهو يتوق شوقاً لمقابلتك».

انطلقت زاندرا مع ڤيك بعد الظهر وهي لا تتوقع شيئاً.. ولكن السير

مدة ربع ساعة حتى المستشفى أنعشها كثيراً.. وما إن وصلا حتى اكتشفت أن المكان لا يشبه المستشفى أبداً. كان منزلاً كبيراً، يقع في سفح جبل كثير الأشجار..

لم يطغ على هذا المكان الجو الطبي المعتاد بل جو شبيه بالجو في البيت.. دلتهما إلى غرفة الاستقبال خادمة تتكلم نوعاً من اللغة السويسرية الألمانية، فهمها ڤيك بسهولة أكثر من زاندرا وقالت لهما إن السيد سبنسر سينضم إليهما بعد وقت قصير.

سألت زاندرا:

ـ ألا يلازم والدك الفراش؟

ـ كان يلازمه في البداية.. مع أنه لم يعد مضطراً لملازمته.. هو بحاجة إلى فترات من الراحة.. الهواء هنا نقي.. ينعش الجسم والتنفس.

وصمت يصغي.. فسمعت زاندرا الصوت كذلك.. صوت حركة في الردهة، فاتجهت عيناها إلى ڤيك وهي تدرك أنهما سرعان ما سيصبحان وجهاً لوجه مع دايڤد سبنسر.

امتدت ذراع ڤيك لها، وتقدمت إليه بشكل لا إرادي وسرعان ما أحست بذراعه تشدها إليه، وكم شعرت بالراحة لهذا التواصل! حين فتح دايڤد سبنسر الباب، رأى ابنه وكتفه الجديدة واقفين معاً، وابنه يحتضن عروسه. ساد صمت بدا وكأنه سيمتد إلى ما لا نهاية، كان الأب خلاله ينقل بصره من أحدهما إلى الآخر.. لكن زاندرا كانت تعي أن هذا لم يستمر أكثر من ثانيتين. ثم تقدم ڤيك مقتاداً إياها إلى والده وابتعدت ذراعه عنها عندما راح الرجلان يحييان بعضهما بعضاً.

قال ڤيك: مرحباً أبي.. أريد منك أن تلتقي بزاندرا.

أرادت زاندرا أن تتكلم لكنها لم تجد صوتها.. أرادت أن تمد ذراعيها إلى الرجل العجوز لتقول له: صدقني.. لا داعي أن تقلق!.. ڤيك لا يحب سوزي كما تظن.. لكنها لم تستطع قول أو فعل شيء عدا النظر إلى الرجل الطويل الذي يشبه ابنه إلى حدٍ كبير.. بالمقابل، كانت

تعي أن دايڤد سبنسر يتأملها.. وأدركت أنه لا يريد منها أن تقول شيئاً.. ثم، تركزت عيونهما، ورأت زاندرا أجمل ابتسامة شاهدتها على وجه رجل فقد أضاءت هذه الابتسامة وجه دايڤد سبنسر بشكل غريب:

ـ إذن.. أنت من ثبّت له المرساة أخيراً.

وانطلق صوتها من عقال الخوف:

ـ لقد تطلب هذا مني بعض الجهد.. لكن.. أجل لقد تمكنت من هذا.

ولأنها عرفت أنه تقبل ما كان يريد ڤيك أن يؤمن به، تهللت أساريرها بابتسامة عريضة، وأحست نفسها تنجرّ إلى عناق هو مزيج من الراحة الصادقة والسعادة.

لم يبقيا أكثر من ساعة.. ولأن ڤيك يعرف متى يكون والده متعباً سارع يقول إنهما سيتركانه ليستريح ووعده بزيارة في اليوم التالي.

أحست أن ڤيك غارق في أفكار خاصة.. فبقيت صامتة طوال طريق العودة ووصلا إلى الفندق وڤيك ما يزال رازحاً تحت صمته.

ـ إذن، لقد نجحت في تثبيت مرساتي.. هه؟

نظرت إليه بسرعة، تتساءل عما إذا كانت موافقتها على كلام والده أغضبه. ثم لاحظت أنه يبتسم لها.. ابتسامة نقلت العدوى إليها ولم تستطع مقاومتها، فردت له الابتسامة.. وقالت بحبور:

ـ كلما كبرتم في السن، كلما كان سقوطكم أقسى.

هذا لم يكن يعني شيئاً، فكلاهما يعرف أن ليس هناك أدنى فرصة لوقوع ڤيك في حبها.. لكنها أحست بالسعادة، مع أنها اضطرت إلى النظر بعيداً عنه، لئلا ترى ابتسامته تتحول عبوساً.

وبما أن الصمت بينهما انكسرت حدته، وجدت دفقاً من الأسئلة تريد أن تطرحها:

ـ ما رأيك بما بدا عليه والدك؟

ـ بدا لي كما كان في آخر مرة رأيته فيها تقريباً.. رؤيتك شدت من

عزيمته، ورفعت معنوياته.

ـ أتعتقد هذا؟

ـ أنا واثق من هذا فأنت لم تستطيعي رؤية وجهه وهو يحتضنك.. أستطيع القول إنك كنت أفضل علاج تلقاه منذ زمن بعيد.

ارتفعت روحها المعنوية كثيراً.. كانت تعرف أن شخصيتها لم تكن الترياق الذي يحتاجه دايفد سبنسر، بل وجودها كزوجة لڤيك.. وهذا ما جعلها تشعر أن زواجها، وكما قال ڤيك،، لم يكن لفائدة من جانب واحد.

فكرت زاندرا وهي مستلقية في الفراش تلك الليلة بأن يومها كان جيداً.. ففي هذا اليوم لم تر النظرة القلقة على وجه ڤيك. وبعد عشاء تناولاه في وقت مبكر أمضيا أكثر من ساعة بسيران في أنحاء «داڤوس» التي لم تكن بلدة كبيرة، بل منطقة رائعة الجمال. ثم عادا إلى الفندق، ولكنها رفضت أن تتناول أي شراب ساخن وفضلت الصعود إلى الغرفة تاركة إياه يحتسي فنجاناً من القهوة.

سمعت يتحرك في غرفته.. ولا شك أنه شاهد النور في غرفتها، فقد فتح الباب بهدوء، فوجدها مندسة بين الأغطية مستيقظة.. تسارعت دقات قلبها، فقال:

ـ ظننت أنك غفوت ونسيت إطفاء النور. هل من مشاكل؟

هزت رأسها نفياً لأنها تعرف أن صوتها سيخرج أجشّ متعباً..

أردف: «ليلة سعيدة».

ظلت مستيقظة لبعض الوقت منتظرة أن يعود قلبها إلى هدوئه الطبيعي.. تنعم بالدفء الذي أشاعه فيها قوله «ليلة سعيدة».. لكن ذلك الدفء تلاشى لأن فكرة مرعبة خطرت ببالها.. ستكره أن تكون مشاعره نحوها مشاعر أبوية.. أية مشاعر؟ ڤيك لا يشعر نحوها بأية مشاعر.. لا مشاعر أبوية ولا غيرها.

لم تغف حتى الثالثة لذا كانت منزعجة عندما دخل ڤيك إلى غرفتها

فأقلق منامها.

ـ هيا استيقظي.. أريد أن آخذك إلى «تشارالب» هذا الصباح.

أيجب أن يكون نشطاً إلى هذه الدرجة؟ خمس دقائق فقط.. هذا كل ما تريده.. قالت وهي تدفن رأسها تحت الوسادة هرباً من نور الشمس الساطع المتدفق من النوافذ:

ـ اذهب عني.

فجأة أحست بالبرد.. البرد والسخط معاً.. فهو لم يفعل أكثر من أن أبعد الأغطية عن جسدها الكسول. وسرعان ما استيقظت زاندرا ممتقعة الخدين فقد أدركت أنه ينظر إليها متأملاً فستان نومها الجميل الذي انحسر عن ساقين طويلتين مديدتين، غير أنه أسرع يعيد الأغطية عليها قبل أن تمد يدها لتشدها.. لكن هذا لم يجعلها تحس أفضل حالاً.

كان الأول في استعادة رباطة جأشه، بعد أن أدارت وجهها عنه فاقدة النطق:

ـ آه.. زاندرا.. أنا آسف.. لا تنكدري حبيبتي.

لكن صوته القلق اللطيف لم يفعل شيئاً لمواساتها. ثم، ودون توقع، عاد صوته مجدداً:

ـ يا إلهي.. كيف لي أن أعرف؟ ظننتك من النوع الذي يحب البيجاما.

ـ شكراً كثيراً لك.

كان ردها لاذعاً.. ومع ذلك قال:

ـ على أي حال، أنا زوجك.. إذا كنت لا أستطيع أن أنظر إلى.. مفاتنك.. فمن يستطيع؟

سمعته يتنهد مستسلماً قبل أن يردف:

ـ حسناً، هل تنهضين.. أم أفعل هذا لك بنفسي؟

ـ لا.. لن أفعل.

لكن قولها تغير بسرعة:

ـ بل.. سأفعل.

وفتحت عينيها المغمضتين بعناد، وقالت بصوت مرتفع:

ـ أتسمح أن تخرج؟

ولم يساعدها أن تسمع ضحكته وهو يطيع أوامرها، إذ لم تستطع منع نفسها من التفكير في جمال هذا الصوت.

بعد الحمام ارتدت ملابسها وهي تشعر بالخجل من طباعها السيئة.. لكنها كانت مستاءة لأنه قال لها «إنه كان يظنها من النوع الذي يحب البيجاماء.. وعليها أن تكون ممتنة لأنها لم تعد كذلك، بفضل عمتها أليس.

جلست معه إلى مائدة الفطور وبدأت باحتساء فنجان القهوة.. في هذا الوقت عرفت أنها لن تستطيع الاستمرار في تصرفها غير الودود أكثر من هذا.. بعد نظرة أخرى طويلة متفرسة من ڤيك، عرفت أن عليها أن تفعل شيئاً..

قالت بهدوء، وهي لا تزال متملكة لشجاعتها:

ـ أنا آسفة لأنني كنت فظة هكذا هذا الصباح.. لم أنم جيداً ليلة أمس.

ـ وهل لهذا سبب محدد؟

ـ السرير الغريب كما أعتقد.

ولم يكن سبباً مقنعاً.. خاصة وأنهما في مجال عملهما لا يقضيان وقتاً طويلاً في فراش واحد، أو في منزليهما.. لكن ڤيك لم يضغط عليها.. على أي حال، حققت ما تريد وكسرت الجليد الذي كان بينهما.

أحست وهما يتسلقان الطريق الملتوي نحو شازالب أنها منسجمة كل الانسجام معه. خاصة بعدما تعثرت في صعودها، وأمسك يدها ليضعها في ذراعه قائلاً:

ـ هاك.. تعلقي بي.

وتركت زاندرا يدها هناك إلى أن وصلا إلى جزء من الجبل يحتوي

على مطعم.

وقفا معاً يتفرجان على الوادي تحتهما.. واستطاعت بوضوح أن ترى برج كنيسة يقبع بين الأبنية.. وظنت أنها لن تنسى أبداً صورة الجبل المكلل بالثلج قبالتها، وأشجار السرو العملاقة تنعكس أمام خلفية فضية مع تسلل أشعة الشمس من بين أغصانها.. وكرهت أن تتحرك، وبدا لها ڤيك قانعاً مثلها تماماً.. وعرفت أنه يشاركها نفس السحر الذي لهذه الدقائق، وأرادت أن تتمسك بها أطول مدة ممكنة.. أحست أنه أخذ يدها وسرت فيها خيوط سحر متشابكة، لكنها كانت خائفة أن تنظر إليه في حال لم يكن يشعر بنفس السحر.. ثم اشتدت قبضته على يدها، فاضطرت للنظر إليه.. وأحست بأن ابتسامة سعادة صرفة أخذت تشق طريقها إلى وجهها لرؤيتها تعابير وجهه اللطيفة.

لكن لحظات السحر انتزعت منها، مع سماع صوت، سمعته من قبل، يناديهما:

ـ ڤيك.. كنت أعرف أنني سأجدك هنا!

زاندرا، التي لم تكره أحداً في حياتها، أحست في تلك اللحظة، وڤيك يترك يدها، أنها قادرة على دفع جولي بيفرتون من فوق الجبل.

***

٦ ـ الألم اللذيذ

قضيا ما تبقى من عطلتهما، أو بالأحرى شهر عسلهما القصوري، مع جولي. صحيح أن زاندرا لم تسمعه مرة يدعوها للانضمام إليهما، ولكنها كانت تتواجد دائماً. في النهاية حاولت زاندرا تقبلها، وكلما ازدادت معرفتها بها، كانت تشعر بأنها ستحبها لو كانت الظروف مختلفة، وتولد لديها انطباع بأن جولي كانت تغطي جرحاً ما.. ولأنها رقيقة القلب، أصبحت تقول لڤيك:

ـ هل أطلب من جولي أن تنضم إلينا؟

وكان انضمام جولي إليهما في قمة «تشاتزلاب» في الوقت الذي كانت واثقة فيه أنها على استعداد للبوح لڤيك بحبها، أفضل لها. فقد راحت تأخذ جانب الحذر لئلا تأتي مثل تلك اللحظة مجدداً.

زارا والده لآخر مرة قبل يوم من ركوبهما القطار إلى زوريخ.. ثم طارت بهما الطائرة إلى لندن بعد الظهر.

تركت الفندق ومشاعرها متناقضة. فقد عاد ڤيك ذاك الرجل المتجهم الوجه وبذلت جهداً لتعرف الخطأ الذي وقع بينهما، ولكنها لم تفلح. ليلة أمس صاح بها غاضباً وكأنه لا يحبها أبداً.. فقد استيقظت ليلاً، وعندما أرادت معرفة الوقت راحت تفتش عن ساعتها التي تذكرت أنها تركتها في الحمام. فكان أن وضعت روباً خفيفاً على كتفيها وفتحت باب غرفتها فإذا بها تصطدم بڤيك الذي ظنته في الفراش منذ ساعات.

قالت تفسر له:

ـ ساعتي.. نسيتها في الحمام.

وتقدمته.. وإما بسبب توترها وإما بسبب نعسها اصطدمت به، وأحست للحظة واحدة بذراعيه حولها تسندانها.. في تلك اللحظة لعنت نفسها قبل أن تسارع للابتعاد عنه، ذابت بين ذراعيه، ثم ما لبثت أن سمعت صوته الأجش القاسي يقول:

ـ ألا تستطيعين النظر إلى أين تتحركين؟

أقسمت وهي تستعيد وعيها أنها لن تذوب مجدداً بين ذراعيه.. وردت بحدة مماثلة:

ـ آسفة.. سيدي.

وكأنهما في رحلة عمل وهي المضيفة وهو الطيار الصارم.

وبعد عودتهما إلى شقته لم يتغير شيء.. وليس ذلك فحسب بل ازدادت علاقتهما سوءاً. راحت تفكر أنه عائد غداً إلى العمل، وهي في اليوم الذي يلي.. وربما، بعد رجوعهما سيكون مزاجاهما غيره الآن.

وفيما كانت منشغلة بإفراغ حقائبها.. توقفت تفكر.. كم كان ڤيك «فظاً» لا يطاق.. لكن هل هذه غلطته وحده؟ فهو لم يطلب منها التلوي بين ذراعيه.. كما أنها تعترف أنها عاملته بشكل كريه خلال هذا الأسبوع لئلا يكتشف مشاعرها نحوه. ولكنها تعرف أنهما لا يمكن أن يقضيا كل الوقت في تناحر دائم ومزاج سيء.. يجب أن تبذل بعض الجهد لتعود تلك الفتاة التي كانت، قبل أن تقع في حبه.

بعدما اتخذت هذا القرار، خرجت تبحث عنه، ومعدتها ترفرف، فلا تعرف ما ستقول له.. رأت ظهره من باب غرفة نومه المفتوح.. ولا بد أنه سمعها، فقد ارتدّ إليها ولمّا رأت وجهه غير المبتسم وعينيه الباردتين، تلاشت نواياها الطيبة.. ولكن يجب أن تبرر وجودها هنا أمام غرفته.

ـ هل.. من مانع.. لو صنعت فنجان.. شاي؟

رد بفظاظة: «يا إلهي يا فتاة! أنت تعيشين هنا».

ارتدت مسرعة، ولكنها لم تكن سريعة بما يكفي لإخفاء الألم الذي

سبب لهجته.

- زاندرا.

ترددت، وأحست بيده على ذراعها تديرها إليه، وكانت عيناها مشعتين مترقرقتين بالدموع..

قال بهدوء: «آسف لأنني جرحت مشاعرك.. لقد نسيت أنك ما زلت لا تعتبريه منزلك.. ولكن هذا بيتك زاندرا.. وأريد منك أن تكوني سعيدة هنا».

حين يكلمها هكذا تصبح على أتم الاستعداد لتغفر له أي شيء.. وقد دفعها اعتذاره لتسأل:

- ألا يمكن أن نكون صديقين فيك؟

- كنا آخرتين.. أليس كذلك؟

وما إن انبعثت تلك الابتسامة التي تحبها على شفتيه حتى ردت الابتسام ملهوفة إلى بداية جديدة.. ودون أن تدرك ماذا تفعل، رفعت نفسها وعانقته، ولكنها ما لبثت أن ذعرت مما فعلت فلمّا أسرعت تبتعد عنه أسرعت يده تمسك بها.

- إن الشجار معك يرد حقه.. فمصالحتك لذيذة.

ظلّ مزاحه يلازمها حتى بعدما أصبحت في المطبخ.. بعد دقائق انضم إليها يسأل:

- ألم تصنعي ذلك الشاي بعد؟

بعد ساعة من عودتها إلى العمل شعرت زاندرا بأنها أصبحت في أتم استعداد.. وما هي إلا ساعتين، حتى كانت وكأنها لم تغب عن عملها قط.. بعد ذهاب فيك بالأمس، سارعت إلى تنظيف الشقة وترتيبها استعداداً لعودته، وبما أنهما تشاجرا من قبل بسبب المال، فقد ذهبت إلى السوبر ماركت وملأت خزانة المؤون والبراد بكافة الأغراض..

في أثناء ساعات الطيران، كانت أفكارها تعود مراراً وتكراراً إليه.. فهذه الرحلة ستستغرق ثلاثة أسابيع.. وتمنت لو تنتهي مهمته ما إن تنتهي

مهمتها.

خلال محطات الرحلة المختلفة، كانت تقضي بعض الوقت بمفردها أو مع جماعة من زملائها.. في رحلة العودة، توقفوا في ستافورة، ودعاها ستانلي كروس مساعد الطيار للعشاء، ولأنها ظنت أن هناك بضعة مضيفين ومضيفات، سيحضرون العشاء.. قبلت. لكن حين انضمت إليه بعدما بدلت ثوبها الرسمي، رأت أنه بمفرده..

سألت: «أين الجميع؟»

- لقد ذهبوا إلى مكان ما.

نظرت إليه وفهمت أن دعوته لم تشمل أحداً غيرها.

لامت نفسها لأنها لم تسأله حين دعاها.. لكن لم يكن أمامها غير أن تقول له إنها جائعة.

كان ستانلي رفيقاً جيداً.. استمتعت زاندرا بوجبتها، لكنها كانت تتشوق للعودة إلى فندقها لتنام، فعلى المرء أن يكون في صحة مناسبة لإداء وظيفته..

فجأة قال لها ستانلي دون مقدمات:

- ما الذي حدث لأندرو بوفت؟

نظرت إليه.. فلم تعجبها لهجة الاتهام في صوته. لكن، قبل أن تقول أي شيء، أردف أمام ذهولها:

- أعتقد أنه لم يكن مناسباً لك؟

- ما قصدك بحق الله؟

- هيا زاندرا.. تعرفين قصدي.. كنتما في آخر السجام.. ولكن ما إن اكتشفت أن فيك سيسير محشو بالمال حتى سارعت للتخلي عن أندرو.

أن تقول له «ماذا تعني؟» مجدداً، لتصرف أيله.. لم تكن تعرف أن ستانلي مشاكس هكذا. لا شك أنه ساخط من شيء ما.. أيقول إن فيك محشو بالمال؟ هذا خبر جديد عليها...

أردف ستانلي بشراسة:

ـ كنت فتاتي.. لكنك خلتني آلهة فتلاعبت بي.. ألم تفعلي ذلك؟ لم تستطيعي انتظار تمسكك بأندرو.. ثم وقبل أن يعرف المسكين ما جرى له، قلت لأندرو وداعاً.. أليس كذلك؟

ـ ستانلي.. يحق الله!

لولا قوانين الشركة بعدم السماح بشرب شيء قبل السفر لقالت إنه فاقد وعيه..

أردف بإصرار: «هذا صحيح.. أليس كذلك؟»

ردت بحدة وقد بدأ غضبها يتصاعد:

ـ لا أدري عما تتكلم.

ـ سأشرح لك إذن زاندرا.. عزيزتي.. في البداية جربتني. وحين ظننت الدنيا أصبحت ورودا، رميتني من أجل أندرو يوغت الذي صدف أن حسابه المصرفي أكبر من حسابي. وحين ظن أندرو أنه في السماء السابعة، ماذا حدث؟ جاء ڤيك سبنسر القادر على شراء أندرو متى يريد، و.. هاي.. وداعاً لأيام أندرو.

سمعت زاندرا ما فيه الكفاية.. فوقفت تاركة إياه في مكانه، متمنية الابتعاد عنه ما أمكن.. فلا شك أنه مجنون! ما الذي كان يقوله؟ ڤيك يملك مالاً؟

كادت تصل إلى فندقها قبل أن يبرد غضبها، بحيث يمكنها إعادة النظر في ما قاله ستانلي بموضوعية.. هل حقاً رمته؟ لا.. لم ترمه.. لأنه لم يكن قط صديقها الدائم.. فالجميع في شركة كرونويل يعرف أن مهنة الطيران تعني حياة اجتماعية مشوشة.. كان هناك أوقات لم تر فيها ستانلي كروس لأسابيع طويلة.. فكيف يمكنه التفكير في أنهما صديقان دائمان؟ وهي واثقة أنها لم تعطه يوماً فرصة ليفهم أنها «فتاته».. أما بالنسبة لرمي أندرو من أجل ڤيك.. آه ليت ستانلي يعرف النصف الآخر!

ستمت فجأة من كل هذا، وارتدّ تفكيرها إلى منزلها الجديد الذي ستكون مسرورة كثيراً بالعودة إليه.. هذه الفكرة أعادت الانتعاش إلى

قلبها فقريباً ترى ڤيك ولو لبضع ساعات.. كانت غارقة بأفكارها بحيث لم تلاحظ قدوم جينا هارتلي التي أخذت مفتاحها من مكتب الاستقبال.

ارتدت زاندرا لسماع صوت جينا:

ـ عدت باكراً.. ظننت أنني رأيتك تخرجين مع ستانلي كروس.

ـ مرحباً جينا.. أجل خرجت معه.

ـ وهل عاد إلى الأعيبه القديمة؟

كررت بدهشة: «الأعيبه القديمة؟»

ـ لن تقولي لي إنه لم يتحرش بك؟

حقاً! جينا في بعض الأوقات لا تطاق! إن أي ردّ سينتشر بسرعة بين سائر أفراد طاقم الطائرة، لذا قالت بهدوء لا تشعر به أبداً.

ـ لن أحلم أن أخبرك شيئاً جينا.. عمت مساء.

إنها متعبة بعد هذه الأسابيع الثلاثة التي قضتها على متن الطائرة وهي تشعر بالحاجة للنوم خاصة في شقة ڤيك التي باتت تروق لها كثيراً. وفكرت ملياً في الاتصال لترى ما إذا عاد.. إنها مستعدة لبذل أي شيء في سبيل سماع صوته الواثق، الهادئ..

ظل ستانلي كروس بعيداً عن طريقها طوال رحلة العودة. وهذا ما أسعدها..

ساعدت آخر الركاب على النزول من الطائرة قبل أن تنضم إلى المضيفات الأخريات اللواتي كن يتفحصن ما في الطائرة من مؤن، ويعتنين بالأعمال المكتبية.. حين أصبحت أخيراً حرة اتجهت إلى موقف السيارات.. هل سيكون ڤيك في المنزل؟.. كم تتمنى هذا.. بإمكانها الذهاب إلى مكتب الطيارين لتتأكد ما إذا كان يعمل.. لكنها شكت في قدرتها على إخفاء مشاعرها لو قيل لها إنه ما زال غائباً.

صدمتها خيبة الأمل عندما لم تر سيارته خارج مبنى الشقة.. وشعرت بأنها بلهاء لإحساسها بخيبة الأمل هذه.. أخذت مفتاحها من حقيبتها، ودخلت إلى الشقة.. وكانت تهم بوضع الحقيبة أرضاً، والاستدارة

لإقفال الباب حين سمعت صوتاً صغيراً، فتسمرت في أرضها.

لم تعرف كيف استطاعت أن تكبح الابتسامة التي ارتفعت من قلبها، وهي ترى قُبك يقف في باب المطبخ، وخصلة شعر تتدلى على جبينه.. كيف يمكن لامرأة أن تحمي زوجها «الأفلاطوني»؟ حتى ولو كانت تحبه؟ لن تستطيع أن تصافحه.. فهذا كثير.. لكن قُبك أخذ القرار منها.

ـ لا شك أنك شممت رائحة الشاي.. هل كانت رحلتك جيدة؟

ـ لم تكن سيئة.

لم تكد تقوى صبراً حتى العودة إلى المنزل، وإذا به يقابلها بأنها شمّت رائحة الشاي.. هذا شيء محبط.. لكن ما الذي توقعته؟

لحقت به إلى المطبخ تخبره عن رحلتها، ثم أدركت أنه قد لا يكون مهتماً بما تقول.. وأرادت أن تسأله متى عاد إلى المنزل، طرحت عليه سؤالين في وقت واحد:

ـ متى ستعود إلى العمل؟.. ومتى.. متى عدت؟

ولأنها لم تكن تنوي طرح مثل هذا السؤال، توردت وجنتاها. ولكنها لم تنتظر رده، بل حملت حقيبتها وذهبت إلى غرفة نومها.

حمقاء! حمقاء! لماذا لم تنتظر حتى تسمع رده؟ فلا شك أنه سيظنها فظة سيئة الأخلاق لطرحها سؤالاً دون انتظار الرد عليه.

جعلتها الحركة عند الباب تجفل وتستدير، وهناك رأت قُبك الذي كانت عيناه على حقيبتها التي كانت تفرغها.

ـ حملت إليك فنجان الشاي.

وتقدم ليضعه على طاولة قرب سريرها، ثم عاد لينظر إليها:

ـ في الواقع، عدت منذ يومين.

توردت وجنتاها مجدداً، ونظرت إليه تتوقع منه السخرية.. لكن نظرته، رغم برودتها لا تحمل أي عداء.

سأل: «أتشعرين بشيء من التوتر؟ لا تقاومي هذا الإحساس زاندرا.. إنه أمر طبيعي.. كاد يمر شهر منذ رأينا بعضنا بعض ولأن... اتفاقنا غير

عادي، فلا عجب أن يكون هذا هو شعورك».

وجاءت ابتسامته، ومعها لمحة «شيطنة».. وخطر ببالها أنه لم يكتشف فقط ما تشعر به بل عرف كذلك أنها لن تتابع إفراغ حقيبتها وهو يقف هناك يشهد خروج قطع ملابسها الداخلية الصغيرة، لتعرضها عليه علناً..

قال: «هاتي الشاي إلى غرفة الجلوس.. لنتحدث معاً».

أحست أنها غبية قليلاً.. فقُبك بذل ما يوسعه ليريح أعصابها.. هذا إذا صرفت النظر عن نظرته الشيطانية إليها.. ولحقت به إلى غرفة الجلوس، وفنجانها في يدها.

قال وهما يجلسان:

ـ شكراً لك على ترتيب الشقة كي أعود إليها مستريحاً.. من عادتي أن أشن غارة عليها عند عودتي، لكنني أقدر لك اللمسة الأنثوية على المكان.

كانت قد نسيت التنظيف والتلميع الذي قامت به قبل سفرها لكن باقات النباتات الخضراء وأوراق الزان على الطاولة إلى يمين النافذة كانت هناك لتذكرها.. فقالت بهدوء:

ـ هذا من دواعي سروري.

ـ حقاً؟

كان ينظر إليها محدقاً.. علام ينظر؟ هل تظهر الكثير من أسرارها الدفينة؟ أكانت أم لم تكن، فقد وجدت من المستحيل أن تكذب عليه.

فاعترفت:

ـ حقاً.. أتعترض لأنني نظفتها قليلاً؟

فما تعبير وجهه:

ـ لا أريد أن أقول لك مرة أخرى زاندرا.. هذا منزلك.

أدارت وجهها عنه، وأنهت احتساء فنجانها.. حاول قُبك جعلها مستريحة ولكنها أفسدت عليه جهده.. فها هو يعود إلى البرود مرة أخرى، وكان من الواضح أن لا شيء أكثر يقال.

وقفت عن مقعدها، تقول:

ـ سأذهب لأتم إفراغ حقيبتي.

بقيت في غرفتها وقتاً طويلاً.. وكان يمكن أن تقضي وقتاً أطول لولا أن خطر ببالها فجأة أنه قد لا يدعوها مجدداً للاستراحة في غرفة الجلوس.. ودون أن تفكر أكثر اتجهت إلى الباب وفتحته لتراه على وشك أن يفتحه هو، وبدا لها واضحاً أنه مصمم على دفعها للشعور بالانتماء إلى هذا المنزل.

ـ جئت أسألك ماذا ستحضرين لنا للعشاء؟

ـ ألست خارجاً؟

قسا وجهه.. فتنهدت.. وبذلت جهدها لئلا يرى مقدار البهجة التي بعثتها كلماته في نفسها.

قال: «هل أنت خارجة؟»

ـ لا.. لا.

آه! ما الفائدة؟ كما قال، إنها متوترة إلى درجة لا تستطيع معها أن تكون طبيعية معه.

ـ ڤيك.. ڤيك.. أنا آسفة.

اعتذرت، وكلها أمل ألا يسألها عن سبب اعتذارها.

أردفت: كما سبق أن قلت أنت.. إنني متوترة.

استرخت ملامح وجهه فشعرت بالراحة، بعد ذلك رافقها إلى غرفة الجلوس.

ـ ما تحتاجين إليه هو فنجان قهوة.. اجلسي، سأحضره لك.

ساعدتها القهوة في السيطرة على أعصابها، وكانت أكثر راحة حين لحقت به إلى المطبخ فيما بعد.. لقد قال لها إنه سيطهو العشاء بنفسه، ولكنها أصرّت، وبعد نظرة ثابتة إليها، استسلم.

قال وهو يفتح خزائن المؤنة:

ـ على فكرة.. أشكرك لأنك اشتريت هذه الأغراض كلها.. بكم

أدين لك؟

غضبت زاندرا: «ڤيك! أرجوك لا تدفعني لأقبل منك مالاً.. فأنا أستمتع بهذا..».

نظر إليها، وعرفت أنه غير راض.. ثم قال أخيراً:

ـ حسناً.. سأقبل هذه المرة.. لكن إن كنت ستملئين الخزائن دوماً بالمؤن، فأنا أصرّ على أن أخصص لك مصروف تدبير المنزل.

ـ لا يمكنني أخذه!

كان رفضها سريعاً وغريزياً.. ولمّا رأت ما بدا على وجهه أضافت بلطف:

ـ أرجوك ڤيك.. حاول أن تفهم.. هذا أقل ما أفعل.

يا إلهي.. إنه يقطب حاجبيه.. وما هي إلا ثوان حتى يبدأ بتوبيخها.. إنه متكبر لعين.. ولكنها نسيت للحظات أنها أيضاً متكبرة.

أردفت: «انظر إلى الأمر من وجهة نظري.. أنا لا أدفع إيجار شقة الآن، وأنا أكسب مالاً وفيراً.. حسناً، أنا.. يجب أن أقدم قسطاً من واجبي..».

قال والثلج في كل كلمة:

ـ لا تكوني سخيفة إلى هذا الحد.. لا أريد مالك.. فأنت زوجتي.

وارتدّ تاركاً إياها بمفردها.

تمنت لو تصفق باب المطبخ وراءه، فقد تملكها غضب لم تكن تدرك أنها قادرة على الوصول إليه.. يا للقدر المتسلط! لكنها تعرف أنه لن يتنازل هو أولاً.. حسناً ولن تتنازل هي هذه المرة!

أخرجت بعض شرائح اللحم من البراد، وبدأت تحضر وجبة العشاء.

عاد بعد قليل إلى المطبخ، وتقدم بأخذ مطرقة ترقيق اللحم منها ويضعها على رف الطهو.. ثم وضع يديه على كتفيها وأدارها نحوه.

وقال بصوت جاد:

ـ أنا مصرّ على موقفي زاندرا.. لكنني عائد إلى العمل صباح الغد،

فهل يمكننا عقد هدنة هذا المساء؟

نظرت إليه والتمرد يكاد يقفز من عينيها.. فجأة خفق قلبها لأنه أخذ يقربها منه.. ثم عانقها فأغمضت عينيها، وتاه الثلج في داخلها وعادت إلى الحياة.. ولكنها لم تلبث أن فتحتهما بسرعة لأنه أبعدها عنه وهو يقول:

ـ أرأيت.. لست الوحيدة التي تعرف كيف تصالح بشكل لطيف.. على أي حال، كنت تبدين شريرة وأنت تمسكين مطرقة اللحم بيدك.

فجأة أغرقا بالضحك.

ذلك المساء، اتصلت زاندرا بعمتها.. وما إن سمعت العمة أن لدى ڤيك عملاً في اليوم التالي، حتى دعت زاندرا إلى ميدلاين.. وقالت تحتها:

ـ ستشعرين بالوحدة بعد سفر ڤيك.

عرفت أن عمتها على حق.. لكن.. لو بقيت في الشقة لشعرت بأنه قريب منها، بطريقة ما.. لذا فتشت في ذهنها عن عذر تقوله لعمتها، دون أن يدرك ڤيك السبب الحقيقي.

ـ عليّ القيام ببضعة أشياء حقاً عمتي.. أتمانعين لو أجّلت الزيارة إلى المرة القادمة؟

ـ حسناً عزيزتي.. قد تستطيعان المجيء معاً.. كم أحب أن تقيما معي هنا.

وضع ڤيك صحيفته من يده ما إن أنهت زاندرا المكالمة:

ـ عمتك بخير؟

قالت له إن العمة دعتهما لزيارتها، وذهلت لرده:

ـ أحب هذا.. ستحاول ترتيب أمر ما.

أخفت دهشتها، وأحست بالسعادة ترفرف في داخلها.. وهي التي طالما ظنته بارداً متحفظاً ومتعجرفاً! صحيح أن العجرفة كانت تظهر عليه أحياناً، لكنها الآن بدأت بالتعرف إلى ڤيك مختلف. رجل أكثر دفئاً مما

ظنته.. وهي الآن لا تحبه فقط.. بل معجبة به.

بعد هذا، مرت الأمسية دون أي توتر.. وحين وقف ڤيك ليذهب إلى غرفته في أمر ما، وقفت لتصنع القهوة.. وفكرت في أن الأمسية أصبحت رغم بدايتها السيئة تفوق كل توقعاتها، إذ لم ينطق أي منهما بكلمة تدل على غضبه.

كان قد عاد إلى غرفة الجلوس حين دخلت تحمل صينية القهوة، فسارع إلى أخذها منها ووضعها على طاولة قريبة. ثم استقام ليقف أمامها، يسد عليها الطريق إلا إذا حشرت نفسها به، أو استدارت من خلف الأريكة.. وهذا لن يبدو تصرفاً سخيفاً فحسب، بل أمراً منافياً للعقل.. هكذا وقفت حيث هي ونظرت إليه.

قال بنبرة عادية: «نسيت أن أعطيك خاتم الخطوبة».

دس يده في جيب سرواله وأخرج علبة صغيرة وأعطاها إيّاها.. وكان ذهولها واضحاً وهي تنظر إليه وتتمتم:

ـ ما.. ماذا؟

ـ ألا تظنين أن من الأفضل أن تنظري إليه لتعرفي إن كان يعجبك؟

انتزعت عينيها منه، ونظرت إلى العلبة وذهنها مخدر.. أخيراً قال:

ـ اعتقدت أنك تفضلين ما هو بسيط.. لكنني أستطيع أن أغيره لك إذا كنت تفضلين ما هو أكثر بهرجة.

شعرت بانبهار حين فتحت العلبة ورأت أنه اشترى لها خاتماً من السوليتير الألماسي:

ـ إنه رائع!

فكرت في أنه تحمل مشقة في اختياره.. مع أن المنطق يقول إن السبب وراء ذلك والده وعمتها اللذين يتوقعان أن يراها تضع مثل هذا الخاتم.. ولكنها رغم ذلك ارتعش صوتها، ولم تستطع أن تقول سوى:

ـ آه.. ڤيك!

ـ لا تبكي فوقه وإلا ذاب!

نظرت إليه من خلال دموعها، وراحت ترفرف بدموعها لتمنع تساقطهما.

قالت: «لم تكن مضطراً».

- هل أعجبك؟

- إنه جميل.. لكنه مرتفع الثمن.. لا أستطيع قبوله قبلك.. إن تركك تنفق مالك عليّ هكذا..

ثم أردفت بسرعة وقد رأته يوشك أن ينفجر:

- سأعيده إليك حين ينتهي زواجنا على أي حال.

لم يدم جو الهدوء طويلاً فقد انتظرت رده العنيف.. ولكنه سيطر على غضبه وقال:

- الخاتم لك زاندرا.. بغض النظر عما إذا افترقنا.. هل هذا واضح؟

رأت غضبه واضحاً... نظرت إلى قسوة وجهه الصخري، وفضلت ألا تتكلم.

شربا بصمت القهوة التي وجدت صعوبة كبرى في ارتشافها.. ولأنها لم تكن على استعداد لتريه أنه هزمها حملت نفسها ما إن أنهت فنجانها وقالت له مجبرة وبشكل بارد: «تصبح على خير». وكان رده أكثر برودة.

ذهبت إلى غرفتها وهي تفكر أنها قد تتخلى عن أي شيء لتتمكن من البكاء.. لكنها أحست أنها غير قادرة على البكاء.

وفيما كانت تهمّ بخلع ثيابها وعت أنها لا تزال ممسكة بالعلبة التي تحتوي على الخاتم بشدة.. ودون وعي فتحتها.. إنه حقاً جميل.. وكأنها منومة، دست السوليتير إلى جانب خاتم الزواج.

وقفت تتأمله فترة.. ثم رفعت رأسها فجأة.. ونسيت إعجابها بالخاتم.. كان ڤيك خارج بابها، وسمعت صوته يهمس منادياً: «زاندرا». لكنها بقيت دون حراك لعدة ثوان ثم سمعت يبتعد.. لم يكن لديها فكرة عما يريد.. لكنها عرفت أنها لن تتمكن من تحمل طبعه، وقد تضيف عليه شيئاً من غضبها.. فالغضب البارد الذي كان يستعر في داخلها

حين أرادت رد الخاتم له، كان شيئاً يفوق كل ما تعرفه، ولا تريد أن تواجه مثله مجدداً.. الليلة على أي حال.

فتحت زاندرا درجاً بهدوء لئلا يسمعها، وأخرجت غلالة نوم جديدة.. من حق العمة أليس أن تفخر بالجهاز الذي اشترته لها. نفضت الثوب الذي كان من النايلون الليموني والدانتيل، ودسته من فوق رأسها.. لقد أخفى جسدها، ولكنه يكفي لتعذيب مخيلة أي زوج جديد.. آه يا عمتي! ليتك تعرفين! دخلت إلى السرير متمنية لو يقلبها النوم ليحملها إلى دنيا الغفلة.. كان خاتم الخطوبة في إصبعها سلوى صغيرة لها ولأفكارها المعذبة.. ڤيك مسافر في الصباح الباكر.. وقد يمر شهر قبل أن تراه مجدداً.

أيقظها ألم متواصل في فكها من نومها العميق.. حاولت ضغط خدها على الوسادة، ولكن الألم استمر.. بعد بضع دقائق من الصراع مع ألم ضرسها والرغبة في العودة إلى النوم.. فاز الألم، فجلست. أضاءت المصباح القريب من السرير، ومدت يدها إلى ساعتها. إنها الواحدة إلا ربعاً.. نظرت حولها يائسة فهي لا تريد أن ترفع صوتاً ولكن ألم الضرس أصبح عذاباً ولم تعد تحتمل أكثر.

نهضت عن السرير، وسارت على أطراف أصابع قدميها إلى الباب، محاولة أن تكون هادئة قدر المستطاع. تقدمت إلى الحمام على أمل أن تجد بعض المسكنات في صندوق الإسعافات الأولية.. حاجتها إلى المسكن أمر ملح والألم في لثتها يكاد يقتلها. آه! لم تعرف من قبل مثل هذا الألم! وضعت كوباً تحت الماء، وعلبة الأقراص المسكنة على المغسلة، ثم حاولت إقفال الماء فانزلق الكوب الزجاجي من بين أصابعها.. كتمت أنفاسها والكوب الزجاجي يرتطم بالبورسلان الأبيض.. مدت يدها بسرعة لتمنع الكوب من الارتطام أكثر.. أصغت.. لا شيء سوى الصمت.. الحمد لله لأنها لم تزعج ڤيك وتوقظه.. بعد ذلك عادت الشقة إلى هدوئها مرة أخرى.. ثم سرعان ما انتفضت حين

سمعت صوتاً آتياً من ورائها.. ارتدت ورأت ڤيك يمرر أصابعه في شعره وهو يقترب.

قالت متأسفة، وكأنها تعتذر:

ـ أشعر بألم في أضراسي.

استوعب ڤيك الموقف حالاً، ورأى علبة الأقراص المسكنة والكوب في يدها، كما رأى في عينيها الألم:

ـ اذهبي إلى الفراش.. سأحضر لك الدواء.

ما إن عادت إلى غرفتها، حتى أدركت أنها لم تكن ترتدي الروب. لو رآها في ظرف آخر غير هذا لتوردت خجلاً وحرجاً.. ولكن ألم الضرس أنساها كل شيء.

سرعان ما كان ڤيك واقفاً إلى جانب السرير، أعطاها كأس ماء أذاب فيها أقراصاً مضادة للألم، فشربته بسرعة. رأته ينظر إلى خاتم الخطوبة في يدها، ولم تعد تدري ما إذا كانت مسرورة أم متضايقة لأنها وضعته في إصبعها.. كل ما عرفته أن فكها يؤلمها وأنها تمر بوقت عصيب لأنها تحاول منعه من معرفة البؤس الذي تشعر به.. تمتمت وهو يأخذ الكأس منها «شكراً لك».. أرادت منه أن يذهب، ومع أنها بحاجة إلى وجوده لتشعر بالراحة، فهي غير قادرة على تحمل رؤيته لها في هذه الحالة من الضعف.

قال بلطف وهو يجذب الأغطية فوقها حتى الكتفين:

ـ يا طفلتي المسكينة.. حاولي أن تستريحي.

مسحت يده شعرها إلى الوراء عن جبهتها، فهل كان متردداً أم ترى ذلك من وحي مخيلتها المتوترة؟ كان صوته لطيفاً وهو يقول:

ـ هل أترك المصباح الصغير مضاء؟

ـ أجل.. أرجوك.

حين تركها، حاولت زاندرا الاسترخاء والنوم ولكن ذلك لم يكن مجدياً.. في الواحدة والنصف كانت جالسة مرة أخرى في السرير، تفكر

في اسم دواء سمعت أنه مفيد جداً لمعالجة ألم الضرس.. ثم قررت أن تقرأ فحملت كتاباً وحاولت قراءته.. لكن هذا كان مستحيلاً.

نهضت من السرير، ووضعت روبها وتسللت بصمت إلى المطبخ، حيث أغلقت الباب خلفها دون أن تحدث صوتاً.. هناك مزجت قليلاً من الملح في بعض الماء، وتمضمضت.. وقد ساعدها ذلك.. إنما لثانيتين فقط.. بعد عشر دقائق، استنتجت أن الماء المالح ليس الحل.

كانت متوترة وهي على الأريكة، تفرك لثتها المتألمة بماء مخدر حين وجدها ڤيك.. ولاحظ حالتها السيئة، فتوصل إلى قرار.

ـ زاندرا.. أتثقين بي؟

لم يكن لديها فكرة عما يعني.. كل ما تعرفه أنها لم تشعر قط بمثل هذا البؤس في حياتها.

قالت آلياً: «بالتأكيد ڤيك».

قال بنبرة لا تحتمل جدلاً: «حسن جداً.. ستأتين معي إلى سريري».

فجأة لم تعد تشعر بالألم في فكها، وراحت تحدّق إليه بعدم تصديق.

أضاف: «كنت أصغي إليك وأنت تجوبين الشقة لمدة ربع ساعة.. ولم أعد أتحمل المزيد.. أنت لا تتركين للمسكّن فرصة ليأخذ مفعوله.. تعالي.. سنرى إن كان سيريحك سرير «العم ڤيك».

شدها لتقف، وكان يعاملها كما يعامل الأب ابنته.

لكنه ليس والدها.. إنه زوجها.. عذبت الفكرة زاندرا، ولم تعد تدري أيهما يؤلمها أكثر: ألم ضرسها، أو فكرة نومها مع ڤيك وكأنهما زوجان بكل ما للكلمة من معنى؟ ما إن أصبحا في غرفته، حتى وضعها في السرير وقال:

ـ هل أخذت المزيد من المسكّن؟

ـ لا.. فقط ما أعطيتني إياه.

ـ إذن، لن يضرّك قرص آخر.

تركها قليلاً وعاد يأمرها أن تشرب ما في الكأس التي يحملها.. حين

اضطجع قربها أجفلت فسمعته يقول لها إنها تبدو أكبر بعشر سنوات، بعينيها الواسعتين وشعرها المشعث.. ثم عاد الألم في فكها وكأن مطرقة تطرق على سندان.

فجأة تركها التوتر، ومعه تلاشى استقلالها.. ولأنها شعرت بثقة كاملة بالرجل المستلقي إلى جانبها ارتدت إليه.. فالتفت ذراعه المريحة حول كتفيها المتدثرتين بالقماش الشفاف، وضمها إليه.. شعرت به يضغط خدها المتألم على كتفه الدافئة.. ويشد باليد الأخرى الأغطية حولها. ثم انخفضت تلك اليد بين الأغطية فاستراحت على خصرها وسمعته يقول:

- بخير الآن حبيبتي؟

وكأنما هي فعلاً في العاشرة من عمرها.. دفنت وجهها في دفئه. وبشكل لا يصدق، خف الألم بالتدريج.

حين استيقظت من نوم خدّره المسكن، رأت أن عقارب الساعة المضيئة تشير إلى السادسة صباحاً.. ثم وقبل أن تفكر كيف وصلت إلى سرير قُبك.. استيقظت مجفلة مصدومة وكأنها كانت في مصعد سقط بها من مبنى مرتفع. وكان سبب صدمتها أن إحدى يديه وجدت في مرحلة ما من مراحل الليل طريقها فوق جسدها وأن الدفء اللذيذ الذي تحسّ به كان سببه تلك اليد. للحظات، لم تستطع التنفس فتساءلت عما ستفعل. فلو تحركت لأيقظته وعندئذ سيرتاع كما ارتاعت، وسيبدو له تصرفه اللطيف ليلة أمس غير صافي النية.

ثم، لم يعد وقت أو حاجة للقيام بشيء، فقد تحرك فاندس فيها أكثر وراحت يده تتحرك. في تلك اللحظة، بدا أنه عاد إلى وعيه الكامل فقد خرجت منه كلمة مخنوقة لم تستطع فهمها، وخرج من الفراش كالبرق وكأنما ملمسها من فوق غلالة النوم الشفافة قد خدشه.

استمرت طرقات قلب زاندرا بعد خروجه من الغرفة، فانقلبت إلى المكان الدافيء الذي أخلاه بسرعة.. كان ألم ضربها يلوح وكأنه موسيقى

بعيدة.. لكنه ألم محمول.. أخذت تنعم بالإحساس في أن تكون في فراش قُبك.. فهي تعرف أن رأسها لن يستلقي مرة أخرى على هذه الوسادة.

سمعته يعود إلى الغرفة وسمعته يفتح الدرج بحذر لئلا يزعجها.. فتقلبت على الفراش وسألت بصوت ملؤه النعاس:

- كم الساعة الآن؟

وان صمت قبل أن يقول إنها السادسة، ثم سألها:

- كيف تشعرين الآن؟

- أنا أفضل بكثير.. شكراً.

جلست ومدت يدها إلى نور المصباح الصغير تضيئه.. فما زال الوقت باكراً، ولا شك أنه يجد صعوبة في التفتيش عن أغراضه في الظلام.. وتقدم ليجلس على حافة السرير، فقالت:

- شكراً لك.. على عنايتك بي ليلة أمس.

- ستذهبين اليوم إلى طبيب الأسنان.

أكان يسألها أم يأمرها؟ ليس ذلك مهماً.. وأحست بالحب الذي تكنه له يتصاعد في أعماقها..

أجابته: «آه! أجل.. لن أحتمل ليلة أخرى كليلة أمس. أعني الألم.. آه..».

تورد وجهها، وارتبكت لأنها ظنت أنه أساء فهمها. فكافأها بضحكة، متسائلاً:

- هل أفهم من هذا أنك أحببت النوم في سريري؟

ولم تستطع عيناها ملاقاة عينيه.

أردف: «سؤال جائر.. أليس كذلك؟ أتظنين أن كوباً من الشاي قد يحرك الألم مجدداً؟»

بعدما خرج.. لم تكن زاندرا في عجلة لترك الفراش.. لقد افترقا كصديقين، وأملت أن يودعها بقبلة قبل خروجه، ولكنه لم يفعل.. فجأة

أدركت أن عليها أن تخرج باكراً لتأخذ موعداً من طبيب الأسنان.

قال الطبيب إن أسنانها ممتازة، ثم راح يشرح لها أن أحاسيسها كانت متوترة مما أثر على فكها الأعلى، وأكد لها أن علاجاً للتوتر سيشفيها. لم تصدقه زاندرا. فقد كان الألم حقيقياً وموجعاً. لكن بعد شرائها الدواء من الصيدلية، وبعدما تناولت الأقراص الوردية وجدت ويا للدهشة! أن طبيب الأسنان على حق بتشخيصه.. وما إن حان موعد عودتها إلى العمل حتى شعرت أنها متحررة من كل ألم.

***

٧ - بينهما جدار

دخلت زاندرا إلى الشقة شاعرة بالخدر والقنوط. لقد مرت تسعة أسابيع منذ رأت فيها ڤيك ولن تراه هذه المرة أيضاً.. فقد عرفت من مكتب الطيارين أن رحلته لن تنتهي قبل يوم الجمعة، وهي ستعود إلى العمل قبل ذلك اليوم إلى مكان ما عبر الأطلسي.

تسعة أسابيع من الآمال والمخاوف وخيبات الأمل.. فهل هذه صورة عما ستكون عليه مشاعرها بعد انتهاء زواجهما؟ سارعت إلى تنحية الفكرة المشؤومة عن رأسها.. ما كان الأمر بهذه الصعوبة لو ترك لها وسيلة اتصال.. أو أي نوع من المذكرات.. أي ما يدل على أنه لم ينس وجودها.

في الوقت الذي غاب عنها فيه، قامت برحلتين طويلتين متعبتين.. ولأنها تأكدت أنه لن يعود في هذه الفترة، أمضت بضعة أيام مع عمتها في ميدلاين.

كانت ماغي ليندلايد قد دعتها إلى حفلة راقصة الليلة، لكنها رفضت الدعوة لأنها تظن أن أندرو سيكون موجوداً، فصديق ماغي هو من عرّفها به.. فكرت كيف تصورت يوماً أنها تحبه.. ولكنها لم ترفض الذهاب بسبب أندرو فقط بل لأنها ستشعر بالذنب إن قبلت فهي الآن متزوجة.

لكن لمَ الإحساس بالذنب؟

حاورت نفسها.. فما زواجها بزواج طبيعي.. ولن يهتم ڤيك أبداً لو ذهبت إلى حفلة دون أن يرافقها أحد.. على أي حال، ماذا هناك في

زواجهما؟ مجرد عناقات سريعة.. ليلة في فراشه عاملها فيها وكأنها طفلة في العاشرة.. وصحبة ممتعة في بعض الأحيان.

نظرت حولها في الشقة.. إنها نظيفة لا شائبة فيها فقد نظفتها بالأمس.. وهناك قالب حلوى بالفاكهة صنعته ووضعته في وعاء محكم الإغلاق من أجل ڤيك حين يعود، وليس لديها ما تفعله إن بقيت في المنزل. ولأنها تشعر بالقلق لن تستمتع بالموسيقى أو بمشاهدة التلفزيون.. ولكن لماذا تتذرع بكل هذا؟ لماذا لا تذهب إلى حفلة ماغي؟ فالعديد من الفتيات يذهبن إلى الحفلات دونما رفيق.

تناولت السماعة واتصلت بماغي قبل أن يعود ضميرها إلى توبيخها.. وكان الوقت قد فات للتراجع فقد سمعت صوت ماغي يرد بغبطة:

- أنا في غاية السعادة زاندرا.. سيفيدك الخروج كثيراً.

- آه؟

ما الذي دعا ماغي لقول هذا؟

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك.. إذ لاحظت أنك أهدأ من المعتاد في هذه الرحلة الأخيرة.. كنت منزوية تقريباً.

هذا ما أعطى زاندرا وقوداً للتفكير.. كرامتها لا تسمح لها بترك الآخرين يعرفون أنها يائسة.. وقبل أن تتوجه إلى المقهى حيث سيلتقون جميعاً، للذهاب إلى منزل ماغي، ارتدت الثوب الجديد الذي اشترته بالأمس في محاولة لإنعاش نفسها.

أقلها التاكسي إلى المكان، وكانت فعلاً تتطلع بشوق للحفلة.. ولكنها ضحكت على الاندفاع المجنون الذي حثها على كتابة ملاحظة لڤيك فهي تعلم أنها ستلتقطها بنفسها بعد عودتها.. فما زال ڤيك على بعد آلاف الأميال منها.

ولما كانت تفتح باب المقهى كادت تصاب بالصمم بسبب الضجة.. وهناك رأت مدعوي ماغي ومن بينهم ستانلي كروس الذي كان يخبر بعض قصصه البذيئة لثلاثة رجال تحلقوا حوله.. وما إن شاهدتها ماغي حتى

نادتها.

لم يكن بودي، صديق ماغي يفارق جنبها، وسأل:

- ماذا تشربين زاندرا؟

لم يغب طويلاً إذ عاد حاملاً كوباً من الليموناضة والزنجبيل وهو ما طلبته، لكن قبل أن يصل، أوقفه أندرو بوغت.. الذي قال له بسرعة:

- أسمعت هذه النكتة؟

رنا بطرف عينه إلى ماغي وأردف:

- ربما ليس أمام السيدات.

ثم أدار رأسه فلمح زاندرا وعندئذ صاح دهشاً:

- زاندي!

تبع هذا نظرة ممعنة طافت فيها عيناه عليها.. فوق الفستان المصنوع من الكريب الأزرق الفاتح، بقسمه العلوي الضيق، وأكمامه الواسعة التي تضفي جمالاً على ذراعيها.

حاول التقدم إليها ولكن ماغي سارعت تقول:

- لنسرع إلى شقتي.. لدي طعام كثير وأنا أقترح أن نأكل أولاً ثم نرقص.

بسبب الزحام أضاعت زاندرا أندرو، ومع أنه لم يؤثر فيها كامرأة إلا أنها لم تستطع سوى أن تسعد للإعجاب الذي بدا في عينيه.

ركبت زاندرا السيارة مع ماغي وبودي ومع رجل آخر يدعى جاك.

بعد وصولهم إلى شقة ماغي ظلت مع جاك لبعض الوقت.. لكن حين خطر ببالها أنه قد يظنها شريكة سهرته، اعتذرت:

- يجب أن أجول بين الحاضرين قليلاً جاك.. أتعرف الجميع هنا؟

الواضح أنه لم يكن يعرف الجميع، فأخذته وقدمته إلى عدة أشخاص ثم اتجهت إلى المطبخ الذي كان فارغاً، وهناك وقفت تستمتع بعزلتها.. إنها تشعر بالفراغ والضياع والانعزال دون ڤيك ولكنها سارعت تضع القناع على وجهها فقد أحست أن أحدهم دخل إلى المطبخ خلفها.

ـ مرحباً أندرو!

غريب كيف تستطيع أن تحييه بهذا الهدوء، بينما كان وجوده في وقت من الأوقات يجعلها تحس أشياء غريبة في داخلها.

ـ كنت أبحث عنك في كل مكان.

ـ حقاً؟

بدأت تحلل قسمات وجهه.. إنه وسيم بالتأكيد.. لكن أليس فمه رخواً قليلاً ومتدلياً.. الغريب أنها لم تلاحظ هذا من ذي قبل.

ـ تبدين جميلة كحالك دائماً زاندي.

ـ شكراً لك.

لم يكن أندرو يوفت معتاداً على من يعامله بتحفظ لذا أزعجته لهجتها.

ـ لست غاضبة مني.. أليس كذلك؟

ـ يا الله! بالتأكيد لا!

ـ كان بإمكاننا الوصول إلى الانسجام التام زاندي.

جاء ردها ببرود ورقة:

ـ لم نستطع أن نؤلف ذلك الانسجام.. أندرو.. سأنضم إلى الباقين.. من الجيد أن..

ـ ليس بهذه السرعة.. فأنا أظن أن لدينا عملاً لم ينتهِ.. ألا تظنين ذلك؟

الواضح أنه سيكون متعباً.. نظرت إلى الباب بلهفة.. تساءل عما إذا كان بإمكانها الخروج منه قبل أن يعرف ما ستفعل.. لحق بنظرتها، وأمسكها من ذراعها بخشونة:

ـ لا.. لن تهربي.. فأنت مدينة لي زاندي.. وأنا رجل يحب استعادة دينه.

حاولت زاندرا التراجع، لكنها اصطدمت بالبراد.. تمنت يائسة لو يأتي أحد.. أمالت نظرها عنه وألقت نظرة على باب المطبخ.. ولكن في

تلك اللحظة بالذات قفز أندرو إليها.. وأمسك بها يريد معانقتها فشعرت بالغثيان وحاولت الرفس والمقاومة ولكن لم يكن هناك جدوى فقد قال:

ـ طالما أردتك.. والآن سأحصل عليك.

صاحت ملدعورة بصوت شق الهواء:

ـ لا أندرو!

ثم تحررت بشكل عجيب منه.. كانت مرتجفة، تشعر بدوار عاجزة عن السيطرة على نفسها.. نظرت حولها بارتباك وحيرة فوجدت ڤيك واقفاً فوق جسد أندرو الممدد على الأرض وهو ينظر إليها بعينين رماديتين قاسيتين، فغار قلبها.. وتمنت الموت لنظرته الخالية من الرحمة تطوف في مظهرها الأشعث، من الرأس حتى أخمص القدمين.. أرادت أن تقول: ڤيك.. ڤيك.. الحمد لله على مجيئك.. غير أنها رددت:

ـ أريد أن أتقيأ.

حملها ڤيك تقريباً فوق جسد أندرو الممدد على أرض المطبخ، ودفعها إلى الحمام.. وتركها لتتقيأ.

راحت تتقيأ وتتقيأ.. ثم كافحت لتجلس فوق طرف المغطس.. وعندما شعرت بتحسن، رفعت نفسها على قدميها، ووجدت معجون الأسنان في خزانة مرآة الحمام فاستخدمت القليل منه لتتخلص من الطعم الكريه في فمها.. ثم أحست أنها أفضل حالاً.. لكنها ما زالت تشعر بأنفاس أندرو الكريهة على بشرتها.

وصلت صرخة ڤيك إليها:

ـ هل أنت على ما يرام؟

وعندما لم ترد دفع باب الحمام.. ولكنها لم تستطع مواجهة القسوة في عينيه.. ومع ذلك أجبرت نفسها على أن ترفع رأسها بشجاعة.

قال لها: «جاهزة؟»

تساءلت ماذا سيفعل لو قالت له: «لا، لن أذهب إلى البيت» ثم شعرت بأنها أضعف من أن تفعل:

ـ أجل.. أنا جاهزة.

قال بازدراء:

ـ لقد فسرت سبب الفوضى في المطبخ لمضيفتك وقلت لها إنك مغادرة.. لذا لا داعي لتودعيها.

لم تبدأ زاندرا بالتفكير السوي، إلا بعد أن وضعها فيك في سيارته وانطلقا نحو المنزل.. لم يستطع عقلها استيعاب ماذا يفعل في انكلترا، وتأوهت لأنها تذكرت الرسالة التي تركتها له في الشقة.

نظر فيك إليها بسرعة لأنه سمع آهتها المكتومة التي ملؤها الألم ثم ضغط بقدمه على دواسة السرعة فطارت بهما السيارة في ضواحي لندن..

لا داعي أن يقلق عليها لأنها لم تعد تشعر بالغثيان.. حسناً.. لم تعد تشعر بالغثيان بسبب ذلك المشهد الذي تعرّضت له في مطبخ ماغي على أي حال. لكن سبب آهته تلك تذكرها الرسالة السخيفة التي كتبت فيها «عزيزي فيك.. أنا ذاهبة إلى حفلة ستقيمها ماغي ليتدلايد في منزلها.. تعال إذا استطعت.. زوجتك زاندرا».

تأوهت مرة أخرى.. وحمدت الله لأن الظلام يعم الكون فهي لا تريد أن يرى تورد وجنتيها من الخجل والحرج.. وهما يدخلان إلى غرفة الجلوس قالت:

ـ أعتقد أنني ذاهبة إلى الفراش رأساً.

رفعت نظرها فاصطدمت بشظيتين من الغرانيت تكادان تمزقانها..

ورد بصوت لا تعبير فيه:

ـ أظنها فكرة صائبة.. أكلمك في الصباح.

وتركها واقفة في وسط غرفة الجلوس.

استيقظت زاندرا باكراً وكم صدمتها الذكرى التي جعلت من المستحيل عليها أن تعود إلى النوم! تسللت من السرير، ارتدت روبها الخفيف، واتجهت إلى المطبخ. ما زال فيك في الفراش، لكن لم يكن هناك مجال لتجنب اللقاء.. فهي مضطرة لمواجهته في وقت ما.

ماذا يفعل هنا؟ لا شك أنه مرهق بسبب رحلاته الطويلة.. لكنه لم يكن من المتوقع عودته قبل يوم الجمعة! غلت الماء في الإبريق، ودونما تفكير سكبت الماء في إبريق الشاي، وانتظرت حتى يختمر.. كان تفكيرها مشوشاً.. صبت الشاي لنفسها وتساءلت عما إذا كان فيك مستيقظاً.. وما إذا كان عليها أن تحمل إليه فنجاناً.

وبشكل لا إرادي، قادتها قدماها إلى بابه حاملة الفنجان فوق صحنه في يدها.. قرعت الباب بخفة، فلم تتلق رداً.. عندئذ دخلت بصمت، وتقدمت تنظر إليه وهو نائم، وراحت تقهر رغبة جامحة تدفعها لتندس في السرير إلى جانبه وتضمه إليها.. كانت تتصارع مع أفكارها المرتبكة، ولكنها وضعت الفنجان والصحن بيد مرتجفة على الطاولة قرب السرير.

لم تكد تصدر صوتاً.. لكن فيك فتح عينيه، ورآه يحدق إليها وكأنها شخص خرج للتو من حلمه..

قال: «زاندرا».

ثم وكأن سماعه لصوته أنبأه أنه لم يعد يحلم.. استيقظ فعلياً.. ولما سمعت اسمها يخرج من بين شفتيه برقة شعرت بالشجاعة فقالت:

ـ فكرت أنك قد ترغب في فنجان شاي.

كم بدا ذلك الصوت مزيفاً، في الوقت الذي كان كل ما تريده هو أن تتوسل إليه ليغفر لها لأنها السبب في رؤيته لذلك المشهد المريع مع أندرو..

جلس فيك ينظر إليها ساخراً:

ـ شكراً.

لم يعجبها بريق عينيه، فارتدت على عقبيها خارجة.

كانت تشرب كوب الشاي الثاني حين انضم إليها في المطبخ. أعاد ملء فنجانه قبل أن يستند بإهمال إلى المغسلة ويسأل:

ـ كيف حال رأسك؟

ـ لم يكن بؤلمني.

ارتفع رأسه متسائلاً: «لا؟»

أوه.. ليتها تفقد أعصابها معه، فذلك سيكون نوعاً من الدفاع عن النفس.. لكنها تخشاه إذ لم تره قط بمثل هذا المزاج والأنكى أن يبدو كل الأوراق الرابحة. ولم تعجبها لهجته، فقالت:

ـ أنت تعرف ما الذي جعلني أتقيأ.

ـ بكل تأكيد، حب حبيبك القديم، لن يجعلك تتقيأين؟

عرفت من رنة صوته أنه مشتعل غضباً.. إنه الآن واقف بعيداً عن المغسلة، جسده مشدود وحاجباه معقودان كسحابة راعدة.

ردت بسرعة: «إنه ليس حبيبي».

ـ أنت تحبينه.

رفضت الرد آملة أن يحرق غضبه نفسه.

ـ كنت تعرفين قبل أن تذهبي إلى تلك الحفلة أنه سيكون هناك.

ـ أنا.. ظننته سيكون.

ـ إذن أردت رؤيته..

ـ لا.. هذا غير صحيح!

ـ لماذا ذهبت إذن؟

كيف تشرح له؟ كيف تقول لهذا الرجل الغاضب إنه الرجل الوحيد الذي تحبه.. وإنها كانت ستجن لو بقيت في البيت تلاحقها الأفكار التي تدور برمتها عنه وعما إذا كان معجباً بها أو يحبها.

كذبها قيك وتابع دون شفقة:

ـ أنت أردت أن تريه.. أردت أن تشعري بذراعيه حولك.. لكن، حين حدث هذا، وهددت الأمور بالإفلات من يدك.. ذعرت.. هل أنا على حق؟

إنه مخطىء.. ولأن غضبه كان مخيفاً لم تستطع سوى النظر إليه عاجزة دون كلمات. عرفت أن عليها قول ما يبعد عنه المرارة.. لكنها أحست بسبب مزاجه الحالي أنه غير مستعد لتصديق إلا ما تصوّر أنه رآه..

أزعجه صمتها أكثر، لذا تحرّك نحوها ووضع يديه بثقل على كتفيها فقفزت مذعورة خافقة القلب.. حاولت الابتعاد وهي ترى ألواناً مشتعلاً في عينيه لكن جهودها لم تكن توازي قوته.. وللمرة الأولى في حياتها تعرف الذعر المتولد من الخوف المباشر.

قالت متوسلة: «دعني قيك».

حاول الحفاظ على آخر ذرة من سيطرته على نفسه وهو يشعر بها ترتجف في قبضته، وقال:

ـ وهل يخيفك الحب زاندرا؟ إذن حان الوقت ليكون لديك ما تخافين منه.

ثم انخفض رأسه، وارتفعت يده تمسك رأسها لتثبته بينما كانت تحركه من جانب إلى آخر في محاولة تجنبه.

أخذت تدفعه عنها بكل قواها.. لكنها كانت أضعف منه بكثير.. ولم يكن في هجومه شيء من الرقة.. وعرفت لحظتئذ أنه لن يتوقف إلا عند استسلامها الكامل.. ثم تحركت الذراع الحديدية التي تشدها إليه، وسرعان ما ترك رأسها، وأصبحت كلتا ذراعيه تحيطان بجسدها وزاد الإحساس بدفئه اشتعال نار الحب في قلبها. مرّ احتجاجها.. «لا قيك.. أرجوك!» دون أن يعيره التفاتاً.. وكان يتجاهل توسلاتها بسبب شدة غضبه ورغماً عنها أثارت لمساته فيها شوقاً وتجاوباً أربكها لأنها لم تكن تريده هكذا، ومع أنها أرادت إنكار مشاعرها فلم تستطع الاستمرار في المقاومة.. وأخيراً عجزت عن ردع نفسها فعقدت ذراعيها حوله..

فقط حين أمسك معصميها وأبعد ذراعيها عنه، عرفت أنه بعد أن أحنى إرادتها أمام إرادته، لم يعد بحاجة إلى تجربة.

اشتد تورد وجهها، ولم تعد تعي إلا أنها تريد أن تزحف مبتعدة في مكان ما وتموت.. ثم قال قيك:

ـ حباً بالله يا فتاة.. استري نفسك..

كانت كلماته غاضبة وجارحة، وأدركت لحظتئذ أنه وجد القدرة

للسيطرة على نفسه لإيقاف ما يجري بينهما ولكن تلك السيطرة معلقة بخيط رفيع جداً.

- لمصلحتك أنت زاندرا.. أبعدي نفسك عن نظري.. بسرعة!

بسبب كلماته والمعنى الكامن وراءها، نفضت عنها الجمود الذي تملكها وخرجت وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها.. ليساعدها الله.. فلم تكن راغبة في تركه..

جلست على فراشها تنتظر أن يتوقف ارتعاشها.. ولم يكن لديها فكرة كم بقيت جالسة تلف ذراعيها حولها.. ولكن شيئاً فشيئاً بدأ الهدوء يلج نفسها، وما إن عاد وعيها كلياً حتى راحت تفكر كيف استطاع ڤيك أن ينبذها.. وحينما أصبح إدراكها سليماً أدركت أنها لا تحتاج إلى التفكير العميق.. فوالد ڤيك يوشك أن يشفى وعندما يحين الوقت لا شك أنّ ڤيك سيرغب في الحرية وسيعمل على إبطال الزواج ولو أكمل ما بدأ به لاستحال عليه إبطال الزواج.. فما تعرفه أن على المرء أن يكون متزوجاً لمدة سنتين قبل إجراء معاملات الطلاق.

دلّت حركة في الغرفة المجاورة على أنها قادرة الآن على التوجه إلى الحمام لتستحم، دون الخوف من ملاقاته. لم تكن مستعدة لمواجهته.. إنها بحاجة للسيطرة على نفسها حين تراه مجدداً. وكان الحظ معها، فعادت إلى غرفتها لترتدي فستاناً من الصوف الناعم العاجي اللون، الذي كان يليق بجسمها. ساهم الفستان في رفع معنوياتها، وهي تعرف أنها تبدو هادئة ومتحفظة قليلاً مع أنها في أعماقها متضعضعة.

توجهت إلى غرفة الجلوس فوجدت ڤيك هناك. كان شعره رطباً وذقنه حليقاً، يرتدي سروالاً أسود وكنزة بيضاء ياقتها مرتفعة..

- تعالي واجلسي زاندرا.. سنتحدث في الأمر كله.

هل هذا هو الرجل الذي سحرها عندما عانقها وأنساها هذه الدنيا كلها؟ والآن يريد «التحدث بالأمر كله»؟ كان يجب أن تعرف أن ڤيك رجل لا يقبل بقاء الأمور غير واضحة.

قطعت الغرفة وجلست على الأريكة، وعاد ڤيك إلى مقعده.

قال وهو يتطرق إلى صلب الموضوع مباشرة:

- لن أعتذر عما حدث، فلو واجهت الظروف ذاتها لكررت ما فعلت على الأرجح. ولكني أعتذر عن شيء واحد هو أنني أخفتك..

تركت عقلها يقلب ردّه في محاولة منها لتقويم ما يقوله في الواقع.. هل يحاول القول إنّ شدة خوفها منه عطلت عقلها عن التفكير بحيث أصبحت لا تعرف ما تفعل؟ أحست بالراحة في نفسها للفكرة.. وفكرت أن من الأفضل ألا تقول له إنه الوحيد القادر على حثها على التجاوب.

سألته: «أكنت غاضباً لأنك ظننتني أستمتع بما كان يفعله أندرو؟»

لم تتلق رداً.. وخطر ببالها أنه لا يهتم أبداً بمن كان يحاول معانقتها.. فهو يريد ممن تحمل اسمه الإخلاص.

أردفت: «كنت غاضباً لأنك فكرت أن أحداً آخر كان سيدخل ويراني بين ذراعيه».

باتت الآن متأكدة أن هذا هو السبب.. فڤيك محترم جداً في أوساط شركة كرونويل.. ولولا مسارعته إلى طرح أندرو أرضاً، ولولا مسارعته إلى جرّها من الحفلة لانتشر الخبر في الشركة بأنه رضي بفسوق زوجته.. وعمله هذا سيكون إنذاراً للجميع فالآن باتوا يعلمون أن من يغازل زاندرا سيتسر عرضة ليصبح فكه مكسوراً.

قال دون أن يجيبها عن سؤالها:

- غاضب وصف معتدل.. في الواقع كدت أجن حين رأيت ذلك الأبله اللقط يحاول افتراسك ليلة أمس.. أحسست أن عليّ أن أؤدبكما.. كنت سأسوي الأمر معك ليلة أمس.. لكن..

- لم تكن غلطتي ڤيك.. في طفولتي، كنت عادة أتقيأ بعد كل شجار يقع بين أبوي.. ويبدو.. أنني لم أتخلص من هذه العادة.

نظرت إليه فرأت أنه يفكر في كلماتها، ورأته يهز رأسه كأنه صدقها..

أردفت تتابع الاعتراف:

- لم أكن ذاهبة إلى الحفلة.. لكن.. حسناً.. كنت ضجرة قليلاً.. وهي المرة الأولى التي أحضر فيها حفلة منذ حفلة زفافنا.

شعرت بالراحة لأنها رأت من تعابير وجهه أنه تفهم مشكلتها..

قال: ليست حياة شيقة لك.. أليس كذلك؟ تعملين بجد وبعد العمل لا تمرحين. أعرف أن هذا صعب عليك.. لكن لبنك تستطيعين الصبر لمدة أطول! فأنا واثق أن وضعنا الحالي سيحل نفسه، وآمل صادقاً، أن يكون حسب ما ترضينه أنت.

عرفت من كلامه أن صحة أبيه تحسنت، وأن النهاية باتت قريبة.. فسألت:

- كيف حال والدك؟

نظر إليها يحاول فهم ما تعني.. ثم بدا أنه فهم.

- جيد جداً.. عاد إلى منزله منذ أسبوع.

كانت زاندرا تريد لدايفد سبنسر الشفاء العاجل ولكن السرور الذي شعرت به طمسه معرفتها أن ڤيك سيدفع عجلات إبطال الزواج قدماً في أية لحظة.. حاولت أن تجعل وجهها متحفظاً، لكنها عرفت أنها فشلت حين مال إلى الأمام وقال:

- ثقي بي.. زاندرا.

حاولت إظهار السرور، فهي لا تريد منه أن يعرف شيئاً عن أفكارها السوداء:

- أثق بك ڤيك بالتأكيد! تعرف هذا.

أشرق الجو كله بينهما حين لمحت فجأة تعبيراً ماكراً في عينيه، وهو يدرك سبب احمرارها.. وتعمدت تغيير الموضوع:

- كيف حصل أنك هنا على أي حال؟ ما كنت أعتقد أنك قادم قبل يوم الجمعة.

يا إلهي! كلما فتحت فمها تكشف عن مزيد من الاهتمام به.. سيعرف

دون أدنى شك الآن أنها سألت مكتب الطيارين عن خط سير مهمته.

- كنت في فانكوفر حين سمعت أن جايمس كارتر أصيب بعارض صحي يستوجب منه الراحة لمدة أربع وعشرين ساعة.. فعرضت الإقلاع بطائرته ليستطيع هو أخذ قسط من الراحة، هكذا وصلت مبكراً.. وشكراً لرسالتك على فكرة.

عندما تورد وجهها سألها بكلمة واحدة: «لماذا؟»

- أعتقد.. أنها كانت سخيفة قليلاً.. لكنني كنت.. فكرت.. حسناً.. ظننتها ترحيباً لطيفاً بك إذا عدت.

هاك.. لقد أكدت للتو أنها بلهاء.. تترك له رسالة وهي لا تتوقع عودته.. وانتظرت أن يسخر منها، لكنها ذهلت حين تكلم بأمر مغاير كلياً.

- شكراً لك.. أرجو ألا تمانعي، فقد رتبت لك إجازة لبضعة أيام بعد عيد الفصح.

- ماذا تعني..؟ هل عليّ الذهاب إلى العمل يوم الخميس؟

لم تصدق ما رأته فقد ارتسمت ابتسامة على وجهه، سرعان ما تحولت إلى ضحكة كان فيها كثير من السحر لاضطراره إلى الاعتراف بما يخطط له.

- ستعودين يوم الأحد.. قلت لرئيس مكتب الطيران إننا بحاجة إلى راحة.. ولأنه علم أننا متزوجان حديثاً، وجد الفكرة صائبة.. هل تمانعين؟

ضحكت زاندرا.. وسمعت الموسيقى في أذنيها حين شاركها الضحك.. ثم أردف:

- فكرت أن نزور والدي، ومن هناك نزور عمتك.

كانت زاندرا مسرورة في سرها.. فقضاء بضعة أيام معه، هبة من السماء.. كبتت فرحتها وردت عليه بهدوء:

- سيكون هذا رائعاً.

بعد ثلاث ساعات من هذا كانا ينطلقان عبر الطرقات الريفية في «ويروكشاير». كان الريف جميلاً في مثل هذا الوقت من السنة. الأشجار كلها مثمرة، والاخضرار يغني مسروراً لأنه تحرّر أخيراً من قيود الشتاء.

كانت القرية التي يعيش فيها والد ڤيك، ترتفع قليلاً عن حدود «ويروكشاير». وهي قرية هادئة. لم يكن ڤيك قد ذكر لها أي شيء عن منزل العائلة. لذا لم تكن مستعدة أبداً لرؤية المنزل الجورجي الطراز، الرائع الجمال الذي كان ينتظرهما. اتسعت عيناها بعدم تصديق حين وجه ڤيك السيارة عبر بوابة حديدية مرتفعة مزدوجة. وتابع سيره في طريق داخلية. ثم قال:

ـ ها قد وصلنا.

ـ ڤيك!

وخانتها الكلمات. سألها والفخر بمنزله لا يكاد يخفيه:

ـ أعجبك؟

ـ جميل جداً. لم أظنك تنتمي إلى هذا النوع من العائلات.

قال: أعرف أنك لم تتزوجيني من أجل مالي.

خرجت سوزي ومعها دايڤد سبنسر لملاقاتهما في الوقت الذي ترجلا فيه من السيارة. بعد قليل دخل الجميع إلى ردهة واسعة ومنها إلى غرفة عرفت زاندرا أنها غرفة الجلوس. إنها غرفة دافئة حميمة مع أن سقفها مرتفع وثمة مقاعد ثلاث متجمعة حول مدفأة اشتعل فيها الحطب.

تبادل الأب وابنه النظرات. وكانت عينا ڤيك تبحثان بدقة عن أي دليل يشير إلى مرض أبيه. ثم قال بهدوء:

ـ ما أروع أن أراك في منزلك مجدداً. لكنني أظن أن سوزي سبق أن قالت لك هذه الكلمات قبلي.

أكدت سوزي ما قاله، وابتسمت لزوجها الذي رد الابتسامة قبل أن يقول لڤيك:

ـ بما أنك عدت إلى المنزل ڤيك. فلا بدّ أن تسوي كل الأمور.

ما الذي يجب تسويته؟. لم يتح الوقت لزاندرا أن تفكر، إذ قالت لها سوزي:

ـ تعالي زاندرا. سأتركهما لأريك غرفتك.

لم يكن هناك مجال للخطأ في مقدار سعادة سوزي. الواضح أنها مسرورة بعودة زوجها. وأحست زاندرا ببعض السعادة تنتقل إليها.

قالت سوزي:

ـ أمر رائع. أليس كذلك. ليس لديك فكرة كم اشتقت إليه وهو بعيد. أردت البقاء في سويسرا معه لكنه لم يسمح لي بذلك.

أطلقت سوزي ضحكة نصف محرجة، وأضافت:

ـ آسفة على ما قلت. لكن لدى هذين الرجلين شيئاً مميزاً!

ولم يكن لدى زاندرا وقت للردّ. كانت غرفة النوم التي أرتها إليها سوزي في الطابق الأول:

ـ كانت هذه غرفة ڤيك قبل أن يترك المنزل. وظننا أنكما ستحبان الإقامة فيها أثناء وجودكما هنا.

فقدت زاندرا لبرهة القدرة على استيعاب ما كانت سوزي تقوله.

ـ سأتركك الآن وعندما تجهزين انزلي. لن يتأخر موعد الغداء كثيراً.

تمكنت زاندرا من إخفاء مشاعرها أمام سوزي، ولكن ما إن تركتها حتى انهارت ركبتاها وغارت على أحد السريرين. ثم وقفت متململة مرة أخرى. السريران مجهّزان. وإن لم تكن مخطئة، فهذه هي الغرفة التي ستشاركها مع ڤيك.

يستحيل افتعال مشكلة أو إثارة ضجة. فمن المهم أن يؤمن دايڤد سبنسر أن زواجهما طبيعي. لا. إياها وإثارة أية ضجة. وما الفرق على أي حال؟ لقد نامت في الشقة معه بمفردهما أكثر من مرة. بل نامت في فراشه ولم تتأذ..؟ لكن، صوتاً صغيراً طالعها من أعماقها: أن ذلك

كان قبل أن يثير فيها كل تلك المشاعر هذا الصباح.

كانت تنظر دون أن ترى إلى الخارج، حين أنبأتها حركة أن فيك دخل إلى الغرفة.. وسمعت صوتاً يدل على أنه وضع حقائبهما أرضاً، لكنها لم تلتفت.. فالآن تأكدت أنهما سيناما في الغرفة ذاتها.. سمعته يتحرك مقترباً منها.. ثم تصلبت لأن يديه حطتا على كتفيها، ولم تستطع أن تسترخي.

قال معتذراً بصوت بدا عليه الاهتمام:

ـ كان يجب أن أفكر في هذا.. لكنني نسيت.

من يستطيع مقاومة هذا الاهتمام في صوته؟ كيف يمكن أن تكون منزعجة وهو يكره نفسه لأنه نسي هذا؟! وخفّ توترها، ومع ذلك لم تستطع أن تستدير إليه.

ردت بهدوء:

ـ لم أفكر في هذا أيضاً.. فلنتصوّر أننا في شقتنا وأن بيننا جداراً.

ضحكت متوترة، وأحست باليدين على كتفيها تشتدان ثم سمعت صوته الأجش يقول:

ـ أتعرفين شيئاً زاندرا ماكنلي سبنسر..؟ أنا معجب بك.

ضحكت بلطف، فقد أسعدها أنه معجب بها، وما إن ابتعدت يديه عن كتفيها حتى ارتدت لتبتعد عنه ونظرت إلى حقيبتها:

ـ على فكرة فيك سبنسر.. كان يجب أن تقول لي إنك أحد أصحاب الأملاك.

ـ لا أكاد أكون كذلك.. سأصحبك بنزهة حول الأملاك فيما بعد. أما الآن فقد جئت لأرافقك إلى تحت حتى نتناول المرطبات قبل الغداء.. أنت هنا في غرفتك منذ وقت طويل، وحماك ملهوف لرؤيتك.

لم تكن واثقة من صحة هذا الادعاء. لكن لا يهم.. هي وفيك متصادقان.. والأهم أنه أصبح معجباً بها.

خرجت أمامه من الغرفة مسرعة.. ولكنها كانت تعرف أن عليها أن تكون ممتنة لما بين يديها.

***

٨ ـ أعد لي حريتي!

لا شك أنها وڤيك سارا أميالاً بعد ظهر ذلك اليوم، قبل أن يعودا أدراجهما نحو المنزل.. وكانت زاندرا متأثرة بكل شيء. انتهى بهما المطاف في مكتب، قدم لها فيه ڤيك، رجلاً في الخمسينيات يدعى أڤري مايلز يساعد في إدارة الأملاك منذ عدة سنوات.. كان واضحاً وأڤري يخبرها عن الأعمال المكتبية أن الأملاك تُدار على أساس تجاري.

كانا يسيران في الطريق الداخلية حين شاهدت سيارة سبور خضراء متوقفة أمام المنزل.. ما إن دخلا إلى الردهة حتى استقبلتهما ضحكة.. وكانت جولي بيفرتون هي التي في الداخل.

حيت زاندرا، ثم بحماسة معروفة عنها رمت نفسها على ڤيك تعانقه بصوت مرتفع وهي تقول:

ـ بعدما عرفت أنكما وصلتما لم أستطع مقاومة المجيء إلى هنا.

قال ڤيك: «أنت لا تتغيرين أبداً جولي.. مع أنك تعرفين أنني رجل متزوج محترم».

وهذا ما أسعد زاندرا التي شاركت بالضحك.

قالت جولي إنها لن تبقى كثيراً.. مع ذلك مضت ساعتان قبل أن ترحل:

ـ وعدت أمي أن أزورها الليلة.. وهي لم تصدقني بالتأكيد.

دعتها سوزي للعشاء.

ـ لا.. صدقاً.. يجب أن أمضي الأمسية في المنزل.. فالجميع هناك

يستقبلني ساخراً: متأكد أنني رأيت وجهك قبل الآن!

جلست زاندرا لتضع اللمسات الأخيرة على ماكياجها قبل أن ترتدي فستانها الأحمر الناري.. تفرست بوجهها.. أهو نحيل كثيراً؟ أم سمين جداً؟ الواقع أنه وجه جميل الشكل.. لكنها في تلك اللحظة، كانت تحاول أن تقرر أي نوع من الوجوه يروق لڤيك.. صرفت النظر عن التفكير في أنه مهتم بجولي اهتماماً يتعدى المحبة التي نمت بفعل السنين أو أن إعجابه بسوزي لم يكن من النوع الذي شد اهتمامه طويلاً.. إذن.. أي نوع من الفتيات يميل إليه؟

فجأة سمعت صوت أكرة الباب فانتفضت ونظرت مذعورة تفتش عن الروب.. لكن ڤيك كان قد دخل إلى الغرفة حيث راحت نظرته تجول عليها.

أغلق الباب وراءه وقال:

ـ آسف زاندرا.. لا أستطيع الخروج.. والدي في الممر.. يا الله.. أنت متوردة خجلاً!

قالت: «كان يجب أن أكون جاهزة».

تركت مقعدها وتناولت فستانها من المشجب.

ـ لكن المكان هنا في غاية الهدوء لذا نسيت الوقت.

دست الفستان من فوق رأسها وسمعته يقول:

ـ هل أعجبك المكان هنا؟

شدّت أطراف ثوبها ثم استقامت، في هذا الوقت كانت عيناه مثبتتين عليها، وشعرت بأن لردها أهمية عنده. ثم ابتسم فعرفت أنها توهم ذلك.

أجابت: «أجل يعجبني».

أرادت أن تضيف قائلة إنها أحبت «الإنوود» منذ وصلت إليه لكنها عرفت أنه أحس بصدقها، وكان ذلك ظاهراً من ابتسامته.

ارتدت عنه وكافحت لتقفل السحاب.. وأحست بيديه تثبتانه لها فاقشعرت بشرتها.

قال بعدما أتمّ مهمته وارتدت إليه:

- يريد والدي أن أجيء إلى هنا وأتولى إدارة الأملاك عنه.

أحست بجفاف في حلقها:

- أتعني أن تأتي وتعيش هنا؟

عادت إلى طاولة الزينة تلتقط أحمر الشفاه.

أضاف: «عندما كان مريضاً، رفض أن تنضم سوزي إليه في سويسرا.. لذا وقع بينهما خلاف.. والآن قررا السفر لقضاء شهر عسل جديد.. يقول أبي إن إدارة الأملاك أصبحت عبئاً عليه.. وبما أنه عليّ أن أتولى هذه المهمة في يوم من الأيام، فيتساءل لماذا لا أستلم المهمة منذ الآن ليستطيع السفر هو وسوزي».

لم تستطع زاندرا أن تقول له إن ما أخبرها به الآن صدمها صدمة كبيرة. ولكنها استدعت كبرياءها، فتلافت بعينيه عبر المرآة. هل كان يقول لها إنّ زواجهما ستنفصل عراه ما إن تنتهي ترتيبات استلامه إدارة الأملاك؟

أجبرتها كبرياءها أن تكون باردة:

- ألن تشعر بالأسى إن تركت الطيران؟

- لا.. لن أمانع.. لقد استمتعت بحياتي، لكنني كنت أعرف أنها ليست دائمة.. تنتهي مدة عقدي مع الشركة في نهاية الصيف.. ولن أجدده.

كانت تهم بإضافة شيء آخر، ولكن خادمة قرعت الباب لتقول إن العشاء جاهز.

أيجب أن تسأله عن إبطال الزواج.. أم تنتظر إلى أن يذكر هذا بنفسه؟ قررت ترك الأمر له.. واستنتجت أنها قد تكون ضعيفة، ولكنها اليوم لن تفكر أكثر.. فستستمتع بما تبقى لها من وقت معه، ولتترك الغد للغد.. وكانت تلك السهرة التي أمضتها إحدى أفضل الأمسيات في حياتها.

لازمها الشعور بالرضا حتى أصبحت وفيك في غرفة النوم.. ثم طفى

عليها حياء يهدّد بتجميد أحاسيسها.. لم تستطع أن تخلع ملابسها أمام فيك.. ولن تستطيع.. لكن، إن عادت من الحمام وهي تحمل ثيابها تحت ذراعها فسيكون تصرفاً غريباً وسيتساءل حماها وزوجته عن الأمر ثم سيستنتجان أمراً لا يمكنها التفكير فيه.

خلع فيك سترته ثم انتبه إلى جمودها فنظر إليها يسأل:

- ما الأمر؟ هل تخشين أن أتصرف كما تصرفت هذا الصباح؟

تغيرت تعابير وجهه لأنه أساء تفسير خجلها بالخوف:

- ليس من عادتي الاغتصاب.. ولن أبدأ به مع زوجتي.

ردت بسرعة: «ليس الأمر هكذا».

- إذن لماذا أنت خائفة؟ إذا لم تكوني معقدة فستستخدم سريراً واحداً الليلة.. ما بك بحق الله؟

أشعرتها لهجته بأنها أغبى من أي وقت مضى.. وكلما تأخرت بالرد، كلما تعاظم ترددها.. فجأة، بدا أنه عرف أخيراً أنها تنوء تحت ثقل الإحراج. فتقدم إليها، ورفعت أصابعه ذقنها بلمسة لطيفة:

- هيا، طفلتي المدللة.. قولي ما الخطب؟

أعادت كلمة طفلتي المدللة كل شيء إلى مساره الصحيح ولم يعد يهمها أنه يعاملها فعلاً كطفلة. أخيراً انفكّت عقدة لسانها فقالت هامسة:

- أنا.. لا أستطيع نزع ملابسي وأنت هنا.

ساعدتها شعلة الغضب على تحمل ضحكته التي رنّت في أذنيها.. فلم يسبق أن نزعت ملابسها أمام أحد ولن تنزعها الآن حتى لو كانت زوجته.

- آه! زاندرا! أنت طفلة.

شدّت ذقنها من يده، ولكنها أحست بذراعيه تلتفان حولها:

- ما رأيك لو أذهب إلى الحمام وفي هذا الوقت انزعي ملابسك وارتدي ثياب النوم؟ حين أعود اذهبي وتطلفي أسنانك وعندما تعودين فسأكون أنا قد أويت إلى الفراش.. ما رأيك بخطتي الفريدة؟

وهي التي ظنت منذ ستة أشهر أن فيك سينسر رجل منحوت من الجليد! ها هو الآن لطيف معها ومحب. شعرت أن غضبها تبخر. فانفرجت شفتاها عن ابتسامة لم تستطع منعها. وارتدّ بعيداً يتمتم شيئاً عن إيجاد فرشاة أسنانه.

ما إن عادت من الحمام مرتدية روبها حتى أدركت أنّ كل شيء سار حسب الخطة، إلا خطوة أن يكون فيك موجوداً في سريره. كان واقفاً يرتدي روباً فوق بيجامته يعبث بأشيائها الموجودة فوق طاولة الزينة. أمسك بفرشاة قصيرة وسألها:

- لمَ هذه؟

- لوضع البودرة على الوجه.

وقاومت بجهد اندفاعاً لاختطافها من يده.

- لا أظنك تحتاجين إليها.

تجاهلته وقالت: «أنا لا أستخدمها كثيراً».

استغلت فرصة إدارته لظهره، وكانت في سريرها حين أنهى تفتيشه. أحست بالفراش الآخر ينخفض تحت ثقله. وسألها:

- هل ستقرئين أم تفضلين إطفاء النور؟

- أنا.. أطفئي على استعداد للنوم.

أطفأ الضوء وسمعت المزيد من الحركة وهو يستقر في فراشه. كانت تدبر ظهرها له وفي هذا الوقت راحت تدعو الله أن يغلبها النوم بسرعة. فستكون ليلة ليلاء إن لم تستطع أن تنسى أنه بقربها.

قالت: «تصبح على خير».

أخجلتها الفظاظة التي علت نبرتها. ورد عليها بلهجة فظة مماثلة:

- تصبحين على خير زاندرا.

في الصباح استيقظت على زقزقة عصافير شهر أيار كأنها تقول ما أروع أن يكون المرء حياً. مددت ذراعيها فوق رأسها وراحت تتمطى. لقد نامت نوماً عميقاً مع أنها بقيت ساعات قبل أن يأخذها النوم.

حدقت إلى السقف وهي مستلقية على ظهرها. لن تنظر الآن إلى السرير الآخر. فلا شك أن فيك مستيقظ منذ وقت طويل، وقبل أن تنظر إلى ساعتها، عرفت أن الوقت ما زال باكراً. إنه يوم جميل ومن المؤسف تضييعه في السرير. لكنها الآن تنعم بالاستلقاء وتستمتع بالهدوء الذي يحيط «بليننوود» دون الحاجة إلى الركض من جانب إلى آخر استعداداً للذهاب إلى المطار.

- هل أنت مصممة على عدم النظر إلى هذه الجهة؟

ارتدّ رأس زاندرا بحدة وشتت صوته هدوء تفكيرها، فرأته مستنداً إلى مرفقه ينظر إليها، وأردف:

- كنت أنتظر أن أقول لك صباح الخير.. لأنك استيقظت منذ عشر دقائق.

إنها مبالغة بالتأكيد.. لكنه لم يبدُ متأثراً بتقاريعهما المفروض.. وتمنت لو كانت مثله.

ابتسمت: «صباح الخير».

أليست ضحكته المرتفعة أن تحيتها الصباحية كانت عادية جداً.. وأدارت وجهها عنه وهو يكشف الأغطية عنه، ويخرج من السرير.

- بإمكانك النظر الآن.

عذبها صوته، واضطرت إلى محاكاة مزحه. ولكن عندما رأته يحاول ربط حزام الروب.. خفق قلبها بشدة.. ثم رأته يقترب ويطلب منها الابتعاد قليلاً، حتى يستطيع الجلوس على حافة سريرها.

- أنا مضطر لتركك وحدك معظم النهار.. إذ عليّ مراجعة بضعة أمور تتعلق بالأملاك.. أنا آسف، لكن الأمر ضروري.

- لن أمانع.

لكنها ستمانع كثيراً لأنها تريده لنفسها، ومع أنها تعتبر هذا أنانية فقد عذرت نفسها على ذلك إذ سرعان ما يخرج فيك من حياتها.

بما أن سوزي كانت مثلها حائرة، فقد اقترحت أن تخرجا إلى

التسوق.. ووافقت زاندرا على أن الفكرة رائعة.. فقالت سوزي:

- أظنتين أنهما سيقتلاننا إن قاطعناهما لنخبرهما إلى أين نحن ذاهبتان؟

لحقت بها زاندرا إلى المكتبة، وهناك قالت سوزي:

- نحن خارجتان في رحلة لصرف المال.

سأل ڤيك ويده ترتفع إلى محفظته:

- أمعك ما يكفي من مال زائدي؟

جمدت زاندرا.. فهي لا تريد ماله..

سمعت دايڤد يقول لسوزي:

- أعتقد أنك قد تستفيدين من المزيد من المال، أليس كذلك عزيزتي؟

لكن زاندرا كانت عازمة على رفض المال الذي كان ڤيك يدفعه إليها.

قالت بحدة لم تشأ أن تظهر في صوتها:

- لا!

ووجدت نفسها بين ذراعيه.. وأدارها لئلا يرى والده المشغول بالحديث مع زوجته، وجهها.

همس بصوت أجش في أذنها:

- حباً بالله! أتريدين فضح كل شيء؟.. إن كنت تعتبرين مالي إهانة فأعيديه فيما بعد، أما الآن فعليك أخذه.

وقفت كالخشبة بين ذراعيه.. لكنها عرفت أنه لن يتركها حتى توافق.

- حسناً.

حمدت الله لأن سوزي لم تشعر بالتوتر الذي تحس به وهما متجهتان إلى القرية في السيارة.. لعنت زائدي ميلها للاستقلال الذي جعل من المستحيل عليها قبول المال من ڤيك.. وعرفت، دون حاجة إلى إطالة التفكير، أنها أفسدت الأمور بينهما.. في وقت كانا فيه على أتم اتفاق.

توقفت عن التفكير في ما حدث معها قبل قليل، وصبت اهتمامها على

جولة سوزي.. وما إن دفعت اليأس إلى الخلف، حتى تمكنت من الاستمتاع بالرحلة.. صحيح أنهما لم تشتريا الكثير، لكن عندما أزف موعد عودتهما كانت تشعر أنها أقدر على مواجهته مجدداً.

كانت مسألة إعادة المال أمراً سهلاً لأن سوزي أعادت ما تبقى معها إلى دايڤد وهي تقول برقة:

- احتفظ لي بهذه حبيبي، لم أجد شيئاً أردته اليوم.

ضحكت وهي تضيف:

- لكنني سأجده بالتأكيد في المرة القادمة!

أعادت زاندرا المال لڤيك قائلة:

- إنه أمر محبط.. لكن..

وتلقى المال دونما تعليق.

بعد العشاء تلك الليلة، اعترفت سوزان أنها متعبة قليلاً.. ووافقت زاندرا التي استغلت الفرصة للخلود إلى النوم.. فهي لن تستطيع مواجهة ورطة الاستعداد للنوم التي مرت بها بالأمس. وإن كانت محظوظة فستكون نائمة عندما يصعد ڤيك للنوم.

مرت ساعتين قبل أن ينفتح باب غرفة النوم بهدوء، وعندئذٍ أجبرت نفسها للحفاظ على تنفسها مستوياً.. سمعت ڤيك يتحرك بهدوء شديد.

حين نظرت بسرعة إلى سريره في الصباح التالي، وجدته فارغاً، وكانت مسرورة لهذا لأنها لن تكون طبيعية معه، ولأن عليها التخلص من هذا المزاج.

اليوم سيسافران إلى ميدلاين، ومع أنها تحب عمتها كثيراً فلم تشعر برغبة في الذهاب إلى هناك. ولكن الذهاب أفضل لها من العودة إلى الشقة حيث ستكون معه على انفراد.. عندما وصل بها الأمر إلى هذا التفكير تذكرت أنها بالأمس كانت تتمنى لو يكون لها وحدها، وها هي الفكرة ترعبها مع أنه لم يمض على تلك الفكرة أربع وعشرون دقيقة.

تمت الرحلة إلى ميدلاين بصمت، تقريباً.. بدا لها مصمماً على لعب

دور الكابتن في خطوط كرنويل للطيران.. فليفعل ما يريد!

حيّا عمتها بحرارة كالعادة وتحيته الحارة هذه تشير إلى أنه غاضب منها فقط.

قالت العمة: «أرشدي ڤيك ليعرف أين يضع الحقائب زاندرا.. وضعت سريراً آخر في غرفتك لئلا تشعرا بالضيق إن نمتما في سريرك الذي تنامين فيه عادة».

مرت الزيارة دون حادث يذكر.. وكان ڤيك يبذل جهده، مثلها، لئلا تشعر العمة أن بينهما ما هو مريب.. عندما كان يختليان معاً، كان يبدو وكأن جداراً حجرياً بينهما. ولكن الجهد الذي تبذله لتبعد الحقيقة عن العمة بدأ يؤثر في زاندرا.. عما قريب، ستضطر للاعتراف للمسكينة أنها وڤيك سينفصلان.. في آخر يوم على زيارتهما، تساءلت عما إذا كان من الإنصاف مفاجأتها بالخبر في آخر لحظة! أوليس من الأفضل التلميح لها؟ وفيما كانت واقفة قرب ڤيك وهو يضع الحقائب في السيارة قالت أليس:

- تبدين مستغرقة في التفكير عزيزتي؟

رأت زاندرا الفرصة المؤاتية لمحاولة إيصال الخبر إليها بلطف:

- عمتي.. لم أكن أريد إخبارك.. لكن.. لكن.. لدي..

ولكن ابتسامة عمتها التي لم تكن زاندرا تتوقعها أوقفتها عن متابعة الكلام.. ثم وقبل أن تستطيع قول شيء، أحست بذراع ڤيك تحيط بها ثم راحت هذه الذراع تضغط بشدة حتى شعرت بالألم في خصرها.

قال برقة: «ليس بعد زاندرا..».

وبدا أن العمة قد فهمت أن ڤيك يريد أن يبقي الأمر سراً إلى وقت أطول.

لم يكن هناك أدنى شك أن ڤيك كان غاضباً.. عرفت الدلائل مع أن العمة لم تدركها. أبقى ذراعه حولها حتى أدخلها إلى السيارة وأقفل الباب وراءها فبدا للعالم كله أنه زوج مخلص.. ارتدت زاندرا التي راحت تلوّح

للعمة، ثم استقرت في مقعدها وصورة وجه عمتها المبتسم لا تفارقها.

فجأة قال لها بكلمات غير مختارة بعناية:

- بحق الله ماذا كنت ستقولين لعمتك؟

- أنا.. كنت.. الأمر أنني..

أحست بخوف حقيقي حين تركت يده المقود وارتفعت إلى عنقها، وقاومت لتخفي خوفها:

- تعقّل ڤيك.. تعرف أن عمتي تهتم لأمرنا كثيراً.. وستكون متكدرة.. حين.. حين نفترق.

اشتدت أصابعه على عنقها بسبب كلماتها الأخيرة. فشهقت:

- أرجوك.. تكاد تختنقني!

سحب يده، وقال بحدة:

- سنفترق حين أقرّر أنا هذا.. وليس قبله.. يا إلهي! أنت تدفعينني للجنون من فرط الغضب وأشعر أني قادر على خنقك!

أدركت أن الوقت غير مناسب لتقول له إنه كاد يخنقها، وحين تكلم مرة أخرى كان كلامه بارداً:

- أتعرفين أن عمتك الآن ذهبت مسرعة لتعد ستارتي الحياكة والصوف الأبيض؟

- ما.. ماذا تعني؟

- يا إلهي.. هل أنا مضطر لأفسّر الأمر لك؟ تظن عمتك أنك زوجة سعيدة لزوج ينعم بالسعادة. والآن ماذا؟ تعتقد عمتك بأننا أسعد زوجين منذ آدم وحواء. أتعرفين بما فكرت عندما قلت لها إنك تريدين «إخبارها بشيء»؟

نظرت إليه مخدرة التفكير.. ثم طغى عليها الاحمرار:

- أتعني..

ردّ: «بالضبط.. وكأنك قلت لها إنك حامل».

يا إلهي.. أحست زاندرا أنها تغرق في دوامة لا سبيل للخروج

منها.. لكن حين سمعت كلمات فيك التالية، تصاعد فيها الغضب.. قال:

- إذن، وبما أنتا الآن نعتقد أنك حامل، وبما أنني لم أحصل بعد على هذا الشرف.. فربما تكونين طيبة لتقولي لي من فعل هذا؟

لم تعرف ماذا تفعل وبسبب كلامه الجارح، ارتفعت يدها في الهواء وصفعته بكل قوتها، فأصابت صفعتها جانب وجهه بشكل مباشر.. ورن صوت الصفعة في السيارة المغلقة ثم سرعان ما اتسعت عيناها لأنها رأت علامات حمراء حية على خده، وحدقت مذهولة غير قادرة على تصديق أنها المسؤولة عما ترى.. عرفت أنه سيوقف السيارة الآن ليخنقها.. وما إن تدفقت الدموع بصمت على خديها، بانتظار أن تلقى مصيرها، حتى أدركت أن هذا آخر ما في زواجهما ولم تعد تهتم لأيّ شيء آخر.

ولكن لمسة يده أطبقت على يديها اللتين كانتا في حضنها، فنظرت إليه.

قال بهدوء: «لا تبكي.. كان تعليقاً قذراً مني.. وأعرف أن لا أساس له أبداً».

انتزعت يديها منه لأنها كانت تريد تناول منديلها.

أردف: أنا آسف بكل صدق.

قالت بجفاء: «فلننس الأمر».

وأدارت وجهها عنه وهي تعلم أنها سامحته لكنها لم تستطع أن تظهر له بعض اللين.

حاول تغيير الموضوع:

- من الأفضل أن تتصلي بعمتك حين وصولنا، واخترعي لها أي خبر آخر.

بدا لها أن طريق العودة إلى لندن لن تنتهي أبداً.. أحست أنها مرهقة وأنها لا تشعر بميل للانخراط بأي حديث فلزمت الصمت حتى وصلا.. وكانت تشعر أنه مستريح لوصولهما إلى مبنى الشقة بمقدار ما هي

مستريحة.

بعد وصولها أرادت أن تزيل الحواجز بينهما ولكن كل آمالها ذهبت أدراج الرياح حين نظر فيك إلى البريد الذي وصلهما في غيابهما.

أخذت الرسالة منه شاكرة.. ثم عمّت الدهشة وجهها فالخط الذي تراه هو خط أندرو، وعندما استطاعت أخيراً رفع نظرها التقت عيناها بالعينين الرماديتين القاسيتين اللتين كانتا تهددان باختراقها..

- هل من عادتك استلام رسائل من.. منه؟

- لا.. بالتأكيد لا.

- لا يبدو أنه وجد صعوبة في إيجاد مكان سكنك الجديد.. فهل جاء إلى هنا؟

- يا الله.. لا!

قال بحدة لاذعة: «تأكدي من عدم إقدامه على الحضور!»

- ماذا تظنني؟ لن أدعوه إلى هنا بالتأكيد.. أنت تعرف أنني..

أوه.. ما الفائدة؟ فلن يصدقها حتى ولو قالت له إن مجرد التفكير بأندرو يجعلها تتقيأ..

فجأة أحست بالتعب من مقاتلته.. تعبت، وقلقت من تحذيراته المتكررة.. فارتدت على عقبيها مبتعدة عنه، والرسالة ما تزال في يدها.

إنه لا يثق بها.. هذا ما هو واضح.. وبعيداً عن أي اعتبار آخر، ما هو الزواج الخالي من الثقة؟ كل آمالها بأن يتطور زواجهما تمرغت في الأرض.. إن هذا لم يوقفها عن حبه.. لكنها لا تريد زواجاً يسلك أسلوب زواج والديها ذاته.. وترفض أن يعيد التاريخ نفسه.. فقد سمعت من الشجارات ما يكفيها العمر كله.

انتفضت حين دخل فيك إلى غرفتها.. لكنها بقيت حيث تجلس على طرف السرير.. لم يكن لديها فكرة عما يريد.. لكنها لم تفكر قط أنه جاء ليصالحها.. فجأة أصبحت الغرفة أصغر بكثير وهو فيها.. كان يملأها، وكان عليها أن تبتعد عنه.. تبتعد عن الرجل الذي يعذب روحها...

نظرت إليه.. وقرار لم تفكر فيه من قبل يطوف فوق رأسها.. قالت له بهدوء كامل:

- أريد أن ينتهي هذا الزواج.. أريد أن ينتهي.. الآن!

* * *

٩ - في أحضان الخطر

ران صمت رهيب قطعه فيك بقوله:

- تريدين إنهاء زواجنا.. هكذا!

فيما بعد أدركت أنه ما كان عليها الوثوق بلهجته.. كان يجب أن تكون أذكى من الظن أنه تقبل طلبها دون سؤال.

ثم سأل: «لا علاقة لقراءك برسالة عشيقك السابق.. أليس كذلك؟»

شهقت.. فهي لم تقرأ الرسالة بعد.. ولكنه فسّر شهقتها على أنه مصيب في ما اتهمها.

- إذن أنت غير منيعة أمامه كما أوهمتني؟ ولم تكوني بحاجة إلى عوني في الحفلة.. بل الواقع أنك كنت تتظاهرين أنك صعبة المنال.

- لا.. أنت تفهم كل شيء بطريقة غير صائبة.

- بل فهمت! سأوضح لك شيئاً سيدة سبنسر.. أنت متزوجة بي، وهكذا ستبقين.

قاطعته غاضبة غضباً لم تعرف مثله:

- لن أفعل.. سأترك هذه الشقة.. سأتركك.. ثم..

لم تقل المزيد.. فجأة أصبحت مستلقية على سريرها، وثقل جسده يسحقها.. ثم أطبق عليها بقسوة لا رحمة فيه. فأخذت تقاتل كقطة برية متوحشة، لكنها وجدت أن قوتها أمام قوته معدومة.

صرخت: «لا.. فيك.. لا!»

أسوأ جزء من كل هذا، أنه إذا لم يتوقف بسرعة.. لن يعود الأمر

اعتداء.. لأنه أثار فيها مشاعر لا تريدها.. وهي لم تعد تقاومه فقط بل كانت تقاوم التجاوب الذي سيقدّمه له جسدها.. ثم عرفت أنه سيصعب عليه العيش مع نفسه إن أجبرها على الاستسلام له بالقوة.. ولهذا السبب وحده وجدت ما يكفي من قوة إرادة لتتوقف عن المقاومة.. بعد لحظات من الجمود البارد، تمكنت أن تهمس:

- ستكرهني وتكره نفسك، بعد هذا فيك!

نظر إليها.. وعرفت أنه كان من الأفضل لو وفرت جهدها فلا شك أنه سيتجاهلها.. ثم طفت على وجهه نظرة حيرة.. ثم مدّ يده يلامس وجهها الحزين وكأنه منوّم.. ثم سحبها وكأنه يستيقظ من حلم شنيع، وانقلب بعيداً عنها ووقف. راقبت زاندرا نظرة عدم التصديق تطغى على وجهه لأنه وعى أنه كاد يغتصب زوجته.. ثم رأت نظرته تصبح كرهاً للذات وازدراء للنفس، وكادت تبكي من أجله.

خرجت منه الكلمات بقوة وكأنه لا يصدق ما حدث:

- آه! يا إلهي العظيم!

ثم، وكأن مظهرها الأشعث كان شيئاً لم يستطع احتماله.. فارتدّ على عقبيه تاركاً إياها.

لم ترَ فيك بعدها ذلك اليوم.. ولم ترد رؤيته.. ومع أنها على استعداد لمسامحته إلا أنها تعرف أنه لن يستطيع مسامحة نفسه.

في الصباح التالي، كانت في المطبخ شاحبة ولكنها كانت متماسكة الأعصاب.. تحتسي بسرعة فنجان شاي قبل الإسراع إلى المطار، ثم سمعت صوتاً وعرفت أنه انضم إليها.

قال بصوت حازم:

- يجب أن نتكلم زاندرا.. لدي ما أريد قوله لك.

عندما تلاقت نظراتهما رأت التعب مرسوماً في عينيه.

ولأنها صممت ألا يرى كم أضعفها وجوده قالت بصوت هادىء:

- حسن جداً.

- زاندي..

توقفت عن ارتداء سترتها الرسمية..

أضاف: «أتسمحين؟ أريد منك أن تؤخري رحلتك حتى نتكلم».

التقطت حقيبتها وقالت ببرود: «حسناً فيك».

كانت تهنىء نفسها على برودتها.. ولكنها لا تعرف متى ستراه مجدداً ليتحدثا.. ولكن ماذا هناك للكلام؟

تعرف أن زواجهما سينتهي ما إن ينتهي عقده مع الشركة.. فلماذا غضب حين طلبت الاستعجال؟ إنه رجل صادق كثيراً ولا يحاول الخداع.. فلماذا غضب هكذا حين حاولت بت الأمر بدون تأخير؟..

وأغلقت زاندرا تفكيرها في وجه هذه النقطة، وفكرت في الساعات الطويلة التي ستقضيها ليلاً.. وقررت مرة أخرى أن فيك يريد تأخير إبطال الزواج بدافع الشهامة لأنه يظنها تحب أندرو، وهو متأكد أن أندرو لا يفكر في الزواج.. إنه يحاول بهذا أن يحميها.. ثم أحست أنها كالكلب الذي كان يلاحق ذنبه فالأفكار ذاتها تدور وتدور في رأسها.

دهشت زاندرا عندما رأت جينا هارتلي تعمل في مكتب الطيارين، فقالت جينا:

- سأعمل على الأرض في الفترة القادمة.

أردفت تقول إنها تعاني من ألم في الأذنين ومن نزيف أنف.. بدت جينا كئيبة وهي تضيف:

- يقول الإخصائيون إن عليّ البقاء هنا حتى أصبح على ما يرام.

عطفت زاندرا عليها.. فصحيح أنها لا تدعي أنها تحب فتاة الشائعات، ولكنها تشك أن يعطيها الاخصائيون إذناً بالطيران..

كما توقعت زاندرا، لم يكن لديها وقت طويل للتفكير في فيك فالعمل أخذ منها كل تفكير.. مع أنها توقفت قليلاً لتفكر كم هو القدر غريب.. في يوم ما، حين لم تكن تطيقه، كانت تسافر معه غالباً.. ولكن منذ زواجهما، لم تطر معه مرة واحدة.

سرها أن تجد ماغي لبلايد بين المضيفات في هذه الرحلة.. فماغي لم تكن صديقة طيبة فقط، بل أعطاها هذا فرصة للاعتذار لأنها تركت الحفلة بشكل مفاجئ.

قالت ماغي متفهمة:

- ذلك الأحمق.. أندرو! لم يكن الأمر مضحكاً في ذلك الوقت ولكنني كلما فكرت في منظر أندرو يوحت وهو ممدد على الأرض وهو يهذي: أين أنا؟ أغرق بالضحك.

انفجرت ماغي بالضحك ولم تستطع زاندرا إلا أن تتصور ما رأته ماغي، وأن تضحك معها.. ثم سيطرت ماغي على نفسها:

- أسعفه بودي، وأعطاه محاضرة أخلاقية.. وهذا ما جعله يدرك أنه جعل من نفسه حماراً.. على أي حال، قبل مغادرته قال إنه سيكتب لك ليعتذر، وأعطيته عنوانك.. فهل بعث رسالة إليك؟

- أجل.

عرفت زاندرا أن ماغي قرأت من ردها أكثر من فحواه.

أضافت: «أعطاني فيك الرسالة».

صاحت ماغي تأثراً:

- يا الله! لم أفكر في هذا.. كان غاضباً حتى الجنون حين جاء يقول لي إنكما عائدان إلى المنزل.. فهل انزعج كثيراً لأن أندرو كتب لك رسالة؟

- قليلاً.

ما إن أنهت حديثهما حتى فكرت أن ردها هو عجيبة العصر.

مرت الرحلة كالمعتاد وما هي إلا أسابيع حتى عادت زاندرا إلى موقف سيارات الموظفين.. وقبل أن تركب سيارتها الصغيرة نظرت حولها تفتش عن سيارة فيك، فلمحتها، وتساءلت ترى في أي بقعة من الأرض هو فيك في هذه اللحظات.. ولم تكن واثقة إذا كانت تريد منه أن يعود قبل أن تنهي أيام راحتها أم لا.

عادت زاندرا إلى المنزل وكانت تقود السيارة والمطر الموسمي ينهمر.. ما أسرع ما جاء حزيران! دخلت إلى الشقة الهادئة دون فيك. صحيح أنه ليس مزعجاً ولكنه يعطي الشقة ذلك الإحساس بالحياة.. وكان عليها أن تعترف أنها تحب الشقة ولكنها لا تحبها كما تحبها عندما يكون موجوداً فيها.

بعد دخولها إلى غرفة الجلوس، رأت مغلفاً يستند إلى مزهرية من البورسلان فوق رف المدفأة.. التقطتها بسرعة.. ولكنها خافت أن تفتحها.. خافت أن يكون قد عاود النظر في حديثهما وأن يكون في مذكرته هذه إشارة إلى إبطال زواجهما.

سحبت الورقة الوحيدة من المغلف بأصابع مرتجفة وقرأت ما كتب، ثم قرأته مجدداً، وأجهشت بالدموع. كتب: «عزيزتي زاندرا.. أهلاً بك في بيتك.. فيك».

كانت دموع السعادة تتدفق على وجهها. وأخذت تهمس: فيك.. آه فيك! لن يعرف أبداً كم تعني لها مذكرته الصغيرة.. إنها تغفر له كل شيء، وعندما كانت تنظف الشقة، النظيفة أصلاً، كانت كلماته تدور مراراً وتكراراً: عزيزتي زاندرا.. أهلاً بك في بيتك.. فيك!

في اليوم التالي اشترت بعض الأغراض ولكن لم يكن هناك الكثير تشتريه لتضيفه إلى خزانة المؤن.. فمنذ رفضت القبول بمصروف إدارة المنزل، اعتاد فيك أن يملأ الخزائن دائماً بنفسه.. لكن يبقى عليها القيام برحلات إلى محل تنظيف الملابس وأشياء أخرى تحتاج إليها.

عادت إلى الشقة فاستقبلتها رائحة الأثاث الملمّع.. فكرت أن الشقة ستكون براقة حين يدخل فيك إليها.. ليلة أمس اتصلت بالعمة أليس. وفي أثناء الحديث كادت تخبرها أن انفصالها الوشيك هي وفيك لا شك سيحصل قبل وقت طويل.. لكن شيئاً ما منعها عن ذلك.

جعلها تفكيرها بعمتها تفتح الصندوق المحتوي على غلالة النوم البيضاء الشفافة والروب المماثل اللذين أهدتها إياهما عمتها.. نفضتهما

زاندرا من اللفائف وكم تعلقت نظرتها بالثوب الجميل الذي لن ترتديه أبداً.. غصت فجأة لأنها فكرت في ما لن يكون، فتركت الغلالة البيضاء فوق سريرها، وأسرعت إلى الحمام حيث استحمت وغسلت شعرها، ولفت نفسها بالروب الواسع. ثم أعدت لنفسها فنجاناً من الشاي وسندويشاً وتناولت وجبتها السريعة في غرفة الجلوس، ثم تناولت الصحيفة وبدأت بحل الكلمات المتقاطعة.

فيما بعد، عادت إلى غرفتها ورتبت شعرها وسرّحته.. وعندما كانت توشك على مغادرة الغرفة لمحت هدية عمتها ملقاة فوق السرير.. ولم تدرِ لماذا أتاها هذا الاندفاع المفاجيء، إذ خلعت روبها المنزلي بطريقة لا إرادية ودست الغلالة من فوق رأسها، ثم ارتدت الروب المماثل.

ما كانت لتكون أنثى لو تمكنت من مقاومة اللهفة لتنظر إلى صورتها المنعكسة في المرآة.. لكن عينيها لم تريا البراءة والطفولة.. بل رأت وجهها متورداً خالياً من الماكياج، وشعراً متدفقاً في موجات حول كتفيها وما هو أشبه بحلم أبيض ينسدل من كتفيها حتى الأرض.

قالت لصورتها المنعكسة:

- تبدين يا عزيزتي رائعة، رائعة!

ثم ابتسمت ابتسامة خجول وعادت إلى الكلمات المتقاطعة. بعد قليل، خلعت خفّها، ووضعت قدميها تحتها فوق الأريكة.. إن الشقة دافئة هادئة.. أين هو فيك يا ترى؟

فجأة استيقظت ولكن غريزتها أنبأتها أنها لم تعد بمفردها. سارعت للنظر إلى الباب فإذا بها تجفل فثبت واقف وظهره إلى الباب المغلق، وعيناه تعران بها ببطء شديد.

كان شعرها أشعث قليلاً.. وخداها متوردان إثر النوم، ولم يكن لديها فكرة عن الصورة الرائعة التي تظهر فيها في هذا الثوب العرائسي.. كل ما تعرفه أنها لم تقصد أن يراها فيك بهذا المظهر.. إنها تقدر له دفء نظرته ولكنها تعرف أن عليها أن تخلعه بسرعة..

أوقفها فيك بصوت أجش: «لا.. لا تفعلي».

عادت زاندرا إلى الأريكة.. أساساً أحست برغبة جامحة في الارتماء بين أحضانه ولكنها لم تجرؤ على القيام بما قد يقربها منه.. قال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة: تبدين جميلة! وتحرك عن الباب نحوها.

نظرت زاندرا إليه شاعرة أنها تتأرجح في فراغ بعيد عن المنطق. اقترب وعيناه تأسران عينيها، ولكنها لم تستطع القيام بما يقطع ذلك الخيط غير المرئي الذي كان يربط نظرها بعينيه الرماديتين الدافئتين.. فغرت فاها ومررت لسانها على شفتين جافتين متوترتين.. وانسعت عيناها، وخفق قلبها بقوة. وأخيراً وقف أمام الأريكة، وبدا تهبطان نحوها وكأنما ليحتضنها، وكأن رقية سحرية تربطهما معاً.

ثم تعالى صوت زمور سيارة في الخارج.. وعاد الوعي إلى عينيه.. وتلاشت الرقية السحرية.. سمعت ضحكته الخفيفة، ثم قوله الأجش:

- لا.. من الأفضل ألا أمسك.. فما زلت غير قادر على تصديق أنك موجودة وأخاف أن تختفي.

قالت بصوت لم تتعرف أذناها إليه:

- أنا.. لم.. أتوقع عودتك.

- ولا أظنك كنت تتوقعين أحداً غيري.

نظرت إليه بسرعة تريد الدفاع، لكنه كان يبتسم، وأدركت أنه يحاول إزعاجها بمزاحه.. ثم تحرك خارجاً من الغرفة متمتماً بشيء عن تغيير ملابسه لقضاء أمسية مريحة. شكرت زاندرا الله لأنها أصبحت بمفردها، فهبت واقفة وفي نيتها ارتداء ما هو أقل إغراء.

كانت تقريباً أمام باب غرفتها حين خرج فيك من غرفته.. وامتدت يده لتوقفها.. وسرعان ما أعادت لمسة يده على ذراعها المغطى بالدانتيل الخفقات إلى قلبها.. لكنها استطاعت أن ترى أنها لم تعد تؤثر فيه لأن وجهه كان متماسكاً.

- إذا كنت تفكرين في تبديل ملابسك، فلا تفعلي.

يا لقدرته على قراءة أفكارها!

اعترضت قائلة: «لا أستطيع البقاء معك طوال السهرة وأنا هكذا».

- ولماذا لا؟ تبدين.. جذابة! ابقي كما أنت زاندرا.. أتعرفين؟ كنت أتطلع شوقاً لفضاء الأمسية مسترخياً مدخناً الغليون.. والمدفأة الهادرة أمامي.

إنه متعب، ولا يفكّر في غير الاسترخاء.

تحدته قائلة: «أنت لا تدخن الغليون.. وليس لدينا مدفأة حطب».

ضحكا معاً. ثم قال:

- أليس في نفسك رومانسية يا زاندرا الصغيرة؟..

لكن عندما عادا إلى غرفة الجلوس وجلسا معاً فوق الأريكة، تجاهلت صوتاً داخلياً يقول لها إنها ستندم.. مع ذلك وافقت على الجلوس بلا حراك.

قفزت من مكانها قائلة:

- سأصنع القهوة.

فلن تستطيع الانسحاب إلى النوم قبل ساعتين إذ تخشى أن يظنها فقط رغبت في رمي نفسها بين ذراعيه.

أوقعت الملعقة فالصوت القادم من ورائها يشير إلى أنه يريد الانضمام إليها في المطبخ.. لكنها وجدت أن لا شيء يدعو للحذر، لأنه كان واقعياً في تصرفه. فقد جلب الفنجانين وراح يخبرها عما مرّ معه في رحلته.. ثم وصل بالحديث عن سيارته التي تعطلت معه في الطريق، فتركها في كاراج قريب وأكمل طريقه في سيارة أجرة.. بعد قليل كانت تشعر بالاسترخاء الكامل معه ووجدت نفسها قادرة أن تسأله عن مهمته التالية.

- إذا كان كل شيء على ما يرام، يوم الثلاثاء.. لكنني مثلك، في الاحتياط. ولنأمل أن لا يصاب أحد بأي مرض.

كان مصمماً كما يبدو على إبقاء الجو خالياً من التوتر.. ولو كان

هدفه من هذا أن تعتاد عليه وهو يجلس معها مرتدياً بيجاما، فقد تحقق هدفه بعد ساعة.. فقد بدأت زاندرا تستمتع بالحميمة التي تحيط بهما.. وبدوا أشبه بزوجين قديمين فقد دفن ڤيك رأسه بالجريدة التي راح يقرأها وهي حذت حذوه.. تذكرت أنه قال إنه راغب في محادثتها.. لكنها لا تريد أن يتطرقا إلى أي حديث جاد.. فالليلة يطلب ڤيك الراحة وليستظر الحديث حتى الغد.

بعد قليل تحركت مشاعرها وعن غير وعي منها راحت تصغي إليه وهو يقلب صفحات جريدته.. ولكنها لم تسمع صوتاً منذ وقت طويل.. ولكنها لا تنكر أنها كانت ترفع صحيفتها كدرع مع أنها لم تقرأ أكثر من عشر كلمات منها.

أحست بتوتر حاد يصدمها، وانتظرت حتى تسمع حركة أخرى من مقعده، لكن الصمت ران ثقيلاً.. ربما أطرق برأسه ونام.. فعمله صعب، ويحتاج إلى يقظة دائمة.. هذا لا يجدي، يجب أن تنظر إليه..

ببطء أخفضت الصحيفة، ثم أرادت أن ترفعها بسرعة.. ولكن ڤيك لم يكن نائماً، بل كان ينظر إليها وعيناه دافئتان وكأنه كان يريد منها أن تنظر إليه.. تبادلا النظرات بصمت.. وظلته يسمع خفقات قلبها المجنونة، ثم رأته يترك مقعده وتعابير وجهه توحي بأن عليها ألا تخاف، ثم تقدم إلى الأريكة وأخذ الصحيفة منها.

سألها بلطف:

- لم تقرئي شيئاً منها.. أليس كذلك؟

يستحيل عليها أن تكذب: «لا».

رفع قدميها عن الأرض حتى أصبحت نصف مستلقية فوق الأريكة.. ثم جلس إلى جانبها، يمسك يديها المرتجفتين بين يديه.. ثم رفع اليد التي تحمل خاتم الزواج ببطء شديد وقربها بوقار من شفتيه. ثم نظر إليها، وكأنما يحاول قراءة ما في عينيها.. ولأن قدرتها تلاشت منها لم تستطع إخفاء رغبتها فيه.. واشتدت قبضته على يديها، ومع أنه لم يكن يلامسها

أكثر من هذا، إلا أنه كان يغويها وفي عينيه نظرة تفهم.

قال بصوت رقيق: زاندرا.. أريدك.

ردّت بصوت أجش: «أعرف».

وتعرف في الوقت ذاته أنه كان يعطيها فرصة للتهرب.. لكنها لم تتحرك، بل شدت على يديه في استجابة حالمة. دون تردد، أخفض رأسه إلى وجهها، فأغمضت عينيها ثم ما لبثت أن أحست بفمه كخفة الريش على جبينها.. ثم تراجع مجدداً، وسعت عيناه الرماديتان القاتمتان الآن، إلى قراءة تعابير وجهها وإلى عينيها الواسعتين المضيئتين.. أحست أنه ترك لها يداً، ووضع اليد بلطف على عرق ينبض بجنون في عنقها.. ودون حاجة للتفكير ارتفعت ذراعاها لتحيطان به.

كأنما لمسة يديها المتمسكة بكتفيه، أخبرته عن مدى رغبتها فيه.. وراح يعانقها لقد وجد أخيراً ما يريد.

عندما تصاعد الشوق بينهما شعرت زاندرا بالغثيان... لا خبرة لها أبداً.. فرغم شوقها إليه ما زالت تشعر بالخوف من المجهول.. وما إن تضاعف عناقه حتى شعرت بأن غريزتها لن تدفعها للتراجع أبداً.. وخشيت أن يسيء فهم معناها.. لكن نظرة واحدة إلى العينين الرماديتين أعلمتها أنه يتفهم ما تشعر به.

همس بحنان:

ـ لا تجزعي حبيبتي.

ثم أردف:

ـ أتريدين البقاء هنا أم تذهب إلى غرفتي؟

لم تكن ترغب في شيء كما ترغب في العودة إلى فراشه مجدداً.

ردت بخجل: «غرفتك أفضل».

سحب نفساً مرتجفاً: «يا فتاتي الحبيبة».

ورفعها بين ذراعيه، يضمها إلى قلبه.

لكن، قبل أن يخطو خطوة واحدة، تعالى رنين الهاتف المزعج..

فتوقف قليلاً، الصوت مزعج غير مرغوب فيه في هذه اللحظات الجميلة.. وتأوه: لا.. وكان يريد أن يتجاهله.

همست: «يجب أن نرد على الهاتف أفضل».

قال بلطف:

ـ سأعود حالاً.. لا تتحركي.

ابتسمت زاندرا ابتسامة حب بعد أن خرج.. إنها لا تنوي أبداً الذهاب إلى أي مكان.. لكنها لم تجد خياراً أمامها حين عاد يقول:

ـ حينا هارتلي تنتظر لتكلمك.

وبدا أنه يبذل جهداً ليحافظ على هدوء صوته..

تقدم منها وقال: أخشى أنك مضطرة للسفر.

امتدت ذراعه تضمها إليه.

هزتها خيبة الأمل:

ـ آه.. أفضل!

لن تذهب، لا تريد أن تذهب.. إنها هنا، تنتمي إلى ذراعي أفضل.

وقف معها وذراعه حولها.. كلاهما يعرف أن عليها أن تذهب.. فلا أحد يسجل أسمه احتياطياً لمجرد المزاح.. قبلها أفضل بلطف قبلة واعدة.. وعندما تراجعت ببطء من بين ذراعيه، شعرت بالشوق إلى البقاء معه.

وجدت نفسها في غرفة الجلوس وسماعة الهاتف على أذنها، وجزء صغير من عقلها يسجل ما تقوله جينا هارتلي:

ـ.. وأنت يجب أن تحضري إلى المطار فوراً.

سألت دون أن تعرف لماذا ما يزال عقلها وقلبها مع الرجل في الغرفة الأخرى:

ـ وأفضل كذلك؟.. هل سأكون على طائرة أفضل؟

صدمها رد جينا وبدد الإحساس بالدفء.

ـ لا تكوني حمقاء.. ألا تعرفين أن الكابتن سبنسر أعطى تعليمات

صارمة بأن لا تكوني معه على متن طائرة مرة أخرى، مهما كان الظرف.. أتعرفين..

لكن ما يجب أن تعرفه، لم تسمعه. فقد عادت السماعة إلى مكانها وراحت زاندرا تحدق إليها كالبلهاء.. كل ما هو واضح لها الآن، أن إصداره مثل هذه التعليمات يعني أنه لا يهتم بوجودها معه كثيراً.

سمعت حركة من ورائها، ثم لمّا التفت ذراعه حولها انتفضت ودفعت ذراعه عنها بغضب.. وقالت:

- كيف تستطيع؟ آه! كيف تستطيع؟

- زاندرا.. ما الخطب؟

- كيف تستطيع؟

- حباً بالله..

قاطعته: «لا تتظاهر بشيء معي بعد الآن فيك..».

- توقفي عن هذا الجنون زاندرا.. وقولي لي ماذا فعلت الآن؟

كيف يمكنه أن يتغير بسرعة من الدفء إلى البرود؟ لم تستطع تحمل الوقوف والنظر إليه فشهقت ثم أجهشت بالبكاء وهرعت إلى غرفتها حيث أسرعت ترمي الأغراض التي ستحتاجها في رحلتها في حقيبتها.. وبعد ذلك ارتدت ملابسها الرسمية وكانت جاهزة للرحيل دون أن تفكر مرة واحدة بما تفعل.

كان فيك في غرفة الجلوس حيث تركته، ولكنه كان يرتدي ثيابه وهذا دليل على أنه لم يبق هناك حين أسرعت إلى غرفتها.. نظرت إليه وعيناها مغرورقتان بدموع لم تذرفها.. أرادت أن تتجاهله بالكامل.. لكنه تقدم إليها، يحرك يده ليلمسها، ثم عاد وتركها تسقط إلى جانبه لأنه رآها تشيح بوجهها عنه.

قال بصوت تعمد أن يكون هادئاً:

- بعدما تغلبت على هذا الغضب الأولي.. فهل لك أن تقولي ماذا فعلت لتكون هذه ردة فعلك؟

رغت وأزبدت صامتة.. فهي ترفض أن ترد...

- زاندرا!

الطريقة التي لفظ بها اسمها، حذرتها أنها تخوض في أرض خطرة.. لكن لماذا، لا تدري.. فهو المخطىء لا هي.

كما قال، فإن غضبها الأولي تلاشى.. لكنها لن تتحمل ذل الانهيار أمامه..

قالت بحزم: «سأتأخر إذا لم أذهب حالاً».

- لقد اتصلت بسيارة أجرة.. فلا حاجة بك للقيادة السيارة.. وستمضي بضع دقائق قبل وصولها.. لذا، أريد استغلال هذه الدقائق لأعرف ماذا هناك.. هل أنت مستاءة مما كان سيحدث بيننا؟ حبيبتي..

- ليس الأمر هكذا.

- إذن حباً بالله قولي لي ما الخطب؟

كان ساخطاً جداً لأنها ترفض أن تخبره بما يغضبها وبما حوّلها من امرأة راغبة فيه إلى امرأة جليدية تقف أمامه.

- حالما دخلت إلى البيت عرفت أن علينا أن نتحدث، لكنني ظننتك تعرفين كيف...

صمت فجأة ثم أطلق شتيمة بذيئة لم يعتذر عنها، فقد رن جرس الباب.. لكن قبل أن تستطيع المرور، هبطت يداه على كتفيها.. وظنت أنه ينوي منعها بالقوة.. لكن حين نظرت إليه بصمت أبعد يديه عنها، وكأنما بفعله هذا فقط، يستطيع كبح نفسه عن أذيتها.

التقط حقيبتها بوجه متحجر، وقال بصوت خشن:

- الظروف تجبرني على تركك.. لكن علينا في المرة القادمة التحدث مهما كلّف ذلك!

تجاهل يد السائق الممتدة لأخذ الحقيبة منه.. وأجبرها على اللحاق به إلى السيارة المنتظرة.. راقبته وهو يدفع للسائق، ثم سمعته يقول: انتظر لحظة! ووجدت نفسها تنظر إلى وجه بارد لم تر مثله قط..

أمسك ذراعها بقبضة كادت تقطع دورتها الدموية. . ولم يكن هناك شك أنه الآن أكثر غضباً من أي وقت مضى.

قال بحنق:

- أستطيع قتلك لما فعلته هذه الليلة. . ابقي في البيت حين عودتك. . وإلا. . أقسم بالله أن تندمي!

***

١٠ - كاذبة!

كانت زاندرا غافلة عن الطريق التي اختار السائق أن يسلكها، ولم تع شيئاً مما حولها بسبب هذا الغضب المستعر في أعماقها. . كيف له أن يغضب؟ من يظن نفسه؟ إنه هو، فيكتور سينسر، الذي جعلها مادة للضحك في الشركة، وليس العكس. . فما دامت جينا تعرف فهذا يعني أن الجميع يعرف أن الكابتن سينسر لا يستطيع أن يحتمل وجود زوجته على نفس الطائرة معه.

كيف تمكن من فعل شيء كهذا؟ وهي التي كادت تستسلم له! وبماذا يفكر الآن؟ إنها سهلة المنال؟ أيظن أن كل ما عليه فعله هو رفع إصبعه الصغيرة لتأتي إليه راكضة؟ وكيف يتجرأ ويقول إنه يكاد يقتلها؟

كيف ستواجه الآخرين؟ كيف ستواجه زملاءها من المضيفات والمضيفين. . ما الذي يفكرون فيه بحق الله؟ لا شك أنهم يدركون أن زواجها غير عادي.

لم تستطع زاندرا إخراج هذه الأفكار.

أعطتها جينا برنامج سفرها حالما وصلت إلى المطار. . وقالت:

- آسفة لأنني أخرجتك من فراشك.

جعل اقترابها من الحقيقة زاندرا تستدير بسرعة قبل أن ترى جينا الاحمرار يغزو وجهها.

سافرت الطائرة إلى طوكيو حيث أمضت بضعة أيام هناك. . وكانت في طريقها إلى هونغ كونغ قبل أن تخمد نار غضب زاندرا وفي هذا الوقت

بدأت الشكوك تتسلل إلى نفسها.. ليس هناك ما يدل على أن زملاءها يعتقدون أن علاقتها بڤيك غير طبيعية.

في الوقت الذي حطت فيه الطائرة في هونغ كونغ راحت شكوكها تتعاظم فهي لا تجد سبباً وجيهاً لعدم رغبة ڤيك في السفر معه على متن طائرة واحدة.. إنها بارعة في عملها.

وعندما كانت في سيدني، اقتنعت مجدداً أنها لم تتصرف بشكل خاطئ، معه.

في اليوم الرابع، عادت إلى الشك في أنها على حق في تخميناتها.. وما إن أقلعت الطائرة إلى نيوزيلندا حتى تشوّشت أفكارها.. ولكنها تحت هذه الأفكار بعيداً، وركزت على عملها.. وراحت تعتني بطلبات الركاب، وأجرت حديثاً ودوداً مع أي مسافر كان يبدو شارداً، مستوحشاً، أو خائفاً. ولم يبدُ عليها أنها مرهقة حتى حطت بهم الطائرة في أوكلاند.

سرها أن تجد غرفة لها وحدها بدل المشاركة مع مضيفة أخرى، كما يحدث غالباً.. وهناك خلعت حذاءها لتريح قدميها المتعبتين، وفكرت في النوم ساعات قبل العشاء.. ولكن، كالعادة انصبت أفكارها على ڤيك.. ماذا يفعل الآن؟ على أي خط ستطير طائرته؟ كم عدد الرحلات التي سيقوم بها قبل نهاية عقده؟ اثنتان؟ ثلاث؟ وهي لن تطير على أي منها. آخر كلمات سمعتها منه كانت: «ابقي هنا حين تعودين إلى المنزل، وإلا أقسم بالله أن تندمي».. لكن لا شك أنه هدأ الآن.. ترى أيمكنها أن توضب حقائبها وترحل قبل أن يصل؟ هذا ما يجب أن تفعل.. لكن، معرفة المرء لما يجب أن يفعله شيء، وتنفيذ ما يريده شيء آخر.. ألن يكون غاضباً عندما يرى غرفتها فارغة؟ قد يكون مسروراً.. ولكن هذه الفكرة آلمتها..

عندما استيقظت كانت منتعشة فسارعت للاستحمام ولارتداء فستان طويل رفع من معنوياتها.. ولأنها لم ترغب في الانفراد قررت التوجه إلى صالون الفندق، فهناك لا بد أن تلتقي بأحد زملائها.

لكن الصالون كان خالياً من أي وجه مألوف.. ثم توجهت إلى المقهى وهناك رأت معظم زملائها في الرحلة مجتمعين هناك.. أفسحت لها صونيا ماكنزي، وهي مضيفة تحبها زاندرا، مكاناً لتجلس فيه ثم ذهب إدي سومرز ليحضر لها كوباً من العصير.. غريب أن إدي لم يقل لها كلمة، ولم يكن من المعروف أنه يترك فرصة دون التحرش، ولو بتعليق ما.. ارتدت إلى صونيا لتعلق على هذا، لكن النظرة على وجه الفتاة أوقفتها.. نظرت إلى سائر أفراد الطاقم فرأت أحد المهندسين يهمس بشيء لأحد المضيفين.. فتصلبت، وعرفت دون أن يقول لها أحد شيئاً أن هناك خطباً ما.

وجهت سؤالاً إلى كل من يرغب في الرد:

- ما الأمر؟ ما الذي حدث؟

نظرت إلى إدي سومرز الذي عاد وهو يحمل كوباً من الليموناضة والذي سارع يقول:

- اشربي هذا زاندرا.

وعندما بقيت بلا حراك قال:

- لا نعرف التفاصيل الكاملة بعد.. لكن ثمة خبر يقول إن طائرة سقطت على بعد أميال من هنا.

سقطت.. أي تحطمت.. انتظرت زاندرا أن يضيف شيئاً.. لكن إدي رفض أن يمضي أكثر في سرد الخبر.

سألت: لأية خطوط جوية؟

ووجدت صوتها هادئاً جداً.. ولكنها لم تحتج ليضيف المزيد.. لقد عرفت.. عرفت وهذا يكفي!

لكن الصمت السريع قبل تأكيد إدي بدا لها أطول من دهر:

- شركة كرونويل.

- ڤيك؟

- ڤيك كان قبطانها زاندرا.

إنها تسمع أن شعر الناس يقف من الخوف أو الصدمة وهذا ما أحست به فقد أحست بجلدة رأسها تتحرك: «فيك كان القبطان.. فيك كان القبطان!»

تابع إدي يقول بلطف لم تكن تعرف أنه يملكه:

- لا نعرف التفاصيل بعد.. فمن يدري، قد تكون الطائرة حطت بسلام.

عند سماعها هذه الكلمات تحرك عقلها المخدر للعمل مجدداً.. وكان هناك أشياء كثيرة تريد معرفتها.. هل هم متأكدون أن فيك كان القبطان؟ من أين وصلتهم الأخبار؟ لكن جموداً هادئاً استولى عليها، وتجاهلت الليموناضة التي يريد إدي أن تشربها:

- كم سيمر من وقت قبل أن نعرف شيئاً؟

- جايمس كارتنر يجري تحقيقاً الآن.

يجب أن تفعل شيئاً عدا الجلوس هناك تراقب الباب بانتظار دخول جايمس كارتنر.. لكنها لم تستطع أن تتحرك.. أحست أنها مسمرة في المقعد، كان عليها أن تذهب مع جايمس.. ولكن كيف ستتمكن من هذا؟ لقد سمعت بالحادثة للتو.. آه! يا إلهي! فيك.. وأحست بتماسكها ينزلق، ودفعت نفسها للصمود.. اصمدي.. سيكون فيك بخير.. فليساعدهم الله.. كل هؤلاء الركاب.. لا يمكن أن يكون فيك ميتاً.. لن تصدق هذا.. لن تصدق! بقيت حيث هي، فمن هنا تستطيع رؤية جايمس حين يدخل من الباب.

مرت الساعة التالية ببطئ بطيئة، وبين الحين والآخر كان يذهب أحد أفراد الطاقم لتقصي المزيد من الأخبار ولكنهم لم يتلقوا أية أخبار جديدة.. وكانت زاندرا ممتنة لإدي سومرز الذي كان يحجبها بجسده عن عيون الفضوليين.

ثم انفتح الباب ودخل جايمس كارتنر فاتجهت جميع الأنظار إلى ما وراءه.. ورأت زاندرا ظهر رجل يرتدي بزة طيران شركة كرونويل الرسمية

وكان الرجل يستفسر عن أمر ما عند مكتب الاستقبال.. عرفت هذا الجسد الطويل.. عرفت تلك الوقفة لكنها خافت أن تصدق عينيها.

ببطء، وقفت.. ولم تسمع ما قاله إدي سومرز لها، ولم تع أن جايمس كارتنر فتح لها الباب وهي تسير عبره.. أحس الرجل باقترابها.. فارتد إليها.

لم يبدُ لها مختلفاً.. إنه طويل، مستقيم القامة.. إنه الرجل الذي تزوجته.. لم يقل كلمة بل نظر إليها.. ثم ذاب الجليد الذي غلفها لساعة وأكثر.. وقالت بصوت كسير: «فيك».

وقطعت المسافة الفاصلة وارتمت في أحضانه.. كانت تتمتم باسمه مراراً ومراراً وفي هذه اللحظة زال كل عداء كان بينهما وراح هو يشدها بقوة إلى قلبه..

كانت تشهق وتقول: «آوه.. فيك!»

- كل شيء على ما يرام حبي.. أنا بخير..

ثم وعت أنه كان يقاوم ليبقيها إلى جانبه لأن البهو عج فجأة بالمراسلين والمصورين الذين أمطروه بالأسئلة:

- متى عرفت أن هناك خطأ كابتن سبنسر؟

- ما كان ارتفاعك؟

- كم كانت سرعة طيرانك؟

كان الحشد يتعاظم كل لحظة.. ثم سمعت زاندرا صوت فيك الصارم:

- مهلكم لحظة أيها السادة.. جايمس..

ولم تسمع ما قاله له، لكنها فجأة انفصلت عنه ورافقها جايمس إلى غرفتها.

سألها جايمس: بم تشعرين لأن زوجك بطل؟

ولكنه لم ينتظر ردها بل تابع يخبرها أن فيك نجح في هبوط اضطراري، وأن الركاب نجوا إلا من بضعة جروح ورضوض.. سمعت ما

كان يقول.. وتنهدت حامدة ربها.. لكنها لم تستطع استيعاب التفنيات التالية التي كان يقولها لها. فالآن يكفيها أن تعرف أن ڤيك، وجميع من على متن طائرته، خرجوا سالمين.

ما إن أصبحت بمفردها حتى بدأت ردة الفعل بالاستيلاء عليها.. عرض جايمس عليها أن يبقى معها، لكنها قالت له إنها بخير.. وما إن أقفل جايمس الباب، حتى بدأت ترتجف دون أن تستطع السيطرة على نفسها.. وكان هذا أسوأ من نوبات الغثيان التي كانت تعاني منها في طفولتها.. حاولت أن تتذكر ما قاله لڤيك، لكنها لم تتذكر شيئاً سوى الراحة بين ذراعيه وهو يضمها إليه بقوة.. والحمد لله لأنه سليم معافى!

لو دخل ڤيك إلى الغرفة تلك اللحظة، فلن يردعها شيء عن الارتماء في أحضانه.. ولكنه جاء إليها بعد ربع ساعة.. وفي هذا الوقت كان ارتجافها قد توقف.. وكان عقلها قد عاد إلى وعيه الكامل.

أخذت تؤنب نفسها.. سكين ڤيك.. إنه يحاول تخليص نفسه من الزواج، وهي لم تفعل سوى التمسك به أمام كل الناس في الأسفل. لذا لا عجب أنه استدعى جايمس ليبعدها عنه!

دخل ڤيك إلى الغرفة.. في هذه المرة لم تتحرك للاقتراب منه، بل بقيت في الطرف الآخر، يفصل السرير بينهما.. رأت الضيق البسيط في عينيه، ولاحظت تغييراً في تصرفه، يختلف عما كان في البهو. ورأت كذلك نظرة حيرة تمر بوجهه، وكأنه يجد صعوبة في فهم شيء منها

تمتمت: «ما.. ما الذي حدث؟»

- في الأسفل، تعنين؟

تورد وجهها، وعرفت أنه يشير إلى الطريقة التي استقبلته بها

- بل أعني الحادثة.

لم يتحرك، لم يشرب منها.. وعيناه لم تقولا لها شيئاً.. ولكنها شعرت بأنه يتلاعب بها، وأن الحساب آتٍ فيما بعد.

- إنه عطل في التوربينات.

ثم شرع يخبرها بما حدث بعدم اكتراث، وقبل أن ينهي كلامه، أدركت أنه لن يشير إلى ما حدث قبل وصول الصحافيين.

أردف: سيجرى تحقيق بالتأكيد.. لكن أميل إلى الظن أن أحد ديسكات التوربين تفكك، وطارت قطعة معدن إلى المجمّع الكهربائي لتعطل جهاز السيطرة على الطائرة.

شحب وجه زاندرا عندما تصورت ما كان سيحدث. يا إلهي! نظرت إليه فوجدته ينظر إليها، وفتشت عما تقوله.. لا شك أن ما حدث أرهقه.

سمعته يسأل: «المهم ما تشعرين به أنت؟»

- ما.. ما الذي تعنيه؟

- توقفي عن التظاهر زاندرا. لقد انتهينا من مسألة التحطم.. وعلينا الآن الاهتمام بمسألتنا الخاصة. أليس كذلك؟

كانت خائفة من الرد عليه.. ومسرورة للسرير الفاصل بينهما.. لكنها تعرف أنها لو قالت شيئاً خاطئاً، لأزال هذا الحاجز بسهولة.

قالت ببطء: «لا أظن هذا.. أعترف.. أنني بالغت بردة الفعل في البهو.. لكن.. لكنني لم أكن واثقة، ما.. بما تتوقع مني إظهاره أمام الجميع.. هكذا.. اخترت أن أقوم.. بدور الزوجة المحبة».

لكنها لم تكن أبداً الكلمة الوحيدة التي رماها بوجهها.

- كاذبة.

- أنا.. أنا..

- اصمتي زاندرا.. إن كنت لا تستطيعي قول الحقيقة، فسأتكلم عنك.. لم يكن هناك شيء من الزيف والتصنع والتمثيل في الطريقة التي استقبلتني بها.. كان تصرفك صادقاً لا ادعاء فيه.

زادت قسوة صوته وهو يردف:

- لن أسمح لك بتشويه المشاعر التي نحس بها معاً.. أنت لم تستطيعي كبح نفسك عن الارتماء بين ذراعي.. ولم أكن أنا أيضاً قادراً على منع نفسي من احتضانك.

ارتفعت خفقات قلبها حتى كادت تصمّ أذنيها.. وشعرت أنها واقفة على حافة شيء رائع.. شيء هو أروع من أن يكون حقيقياً.. خافت أن تتكلم، خشيت أن يفسد ما تقوله هذا الجو.. فكلمة خاطئة واحدة قد تفسد عليها حياتها.. انتظرت أن يكمل كلامه.. فلا يمكنه أن يتوقف عن الكلام هنا.. لا يستطيع!

فجأة ابتسم لها تلك الابتسامة التي تحبها كثيراً.. وقال بصوت لم يعد جافاً بل ممازحاً تقريباً.

- لا تقولي لي إن قدرتك على القتال خبت أخيراً؟ هل أنت مستعدة للاعتراف بشيء بدأت أشك فيه في آخر مرة كنا فيها معاً في لندن؟

التهب وجهها وهي تتذكر أنها في تلك اللحظات كانت تتوق لتقديم نفسها له.

لكن قيك لم يبدُ أنه يعاني مثل هذا الحرج، فأردف يسأل بهدوء وجد:

- هل أنت على استعداد الآن للاعتراف بأنك تحبينني؟

هزت رأسها نفياً ووجدت أنها غير قادرة على الكلام، فقال آمراً:

- تعالي إلى هنا..

لكنها لم تتحرك:

- حسناً.. سألقاك في منتصف الطريق.. لا أكثر.

وتقدم إلى أسفل السرير..

كان عقلها يقول لها.. لا.. لا يمكن أن يكون ما يقوله صحيحاً، ولسوف تظهرين نفسك بلهاء.. كانت ساقاها الغادرتين تحملانها لملاقاته.. لم يلمسها مع أنها كانت قريبة.. وتلاقت عيونهما في محاولة لينتزع كل منهما الحقيقة من الآخر.

قال بهدوء: والآن فلنبدأ بذكر ما أغضبك يوم تلقيت المخابرة من المطار؟

أرادت أن تبتعد، فقد قرأت في سؤاله أنه أحس بذات المشاعر التي

أحست بها عندما تعلقت به في البهو. لكن يديه ارتفعتا بسرعة وأمسكتا بذراعيها بطريقة توحي بأنه يرفض أن يتركها تنسحب من المواجهة، وعرفت أنها لن تذهب إلى أي مكان حتى يعرّي روحها كلياً.

قالت: «قالت لي جينا هارتلي إنك أمرت بألا أسافر معك مهما كانت الظروف».

- وماذا قالت لك غير هذا؟

حاولت زانذرا أن تفكر.. لكن صعب عليها أن تفكر لأنه يمسك بذراعيها بقوة.. ولأن عينيه تخترقان عينيها:

- لم تقل شيئاً آخر.

قال بثبات:

- إذن سأقول لك بنفسي.. رفضت أن تسافري معي.. لأنك ستلهيني كثيراً.. حين أطير، أحتاج إلى ذهن منفتح دائماً.. ولقد زاد إيماني بهذا اليوم.. فاليوم كنت بحاجة إلى التركيز التام لأحط بالطائرة سالمة.. ولو كنت معي.. لكان هذا مستحيلاً.

قالت عاجزة: أنا.. لا أفهم..

التفت ذراعه حولها، وأحست يده ترفع ذقنها.

قال بحزم ووضوح:

- زانذرا سيتسر.. أحبك كثيراً إلى درجة أن كل التدريب والانضباط والتربية الصالحة تتلاشى مني ولا أعود أعرف اليوم من الأسبوع الذي أنا فيه.. والآن، هلا تلطفت بالإجابة، فإن لم أقبلك بسرعة فستنفجر شراييني!

- قيك.. أوه!

إنه يحبها.. وهذا ما تريد سماعه.. وكررت:

- آه! قيك.. أحبك كثيراً!

ما إن تلفظت بالكلمات حتى سمعت صيحة قيك:

- حمداً لله على هذا!

بعد ذلك عانقها بقوة وشوق، ولم تذكر أنها تحركت نحو السرير أو أنها سارت إليه، أو أن فيك حملها إليه، لكنها وجدت نفسها مستلقية إلى جانبه.

حين أبعد نفسه إنشاً أو إنشين عنها، نظرت إليه والتساؤل في عينيها..

قال بهدوء: «لا أظن الاستلقاء فوق هذا السرير فكرة صائبة في الوقت الحاضر».

رفعها عن السرير ليجلس في مقعد مريح وهي على ركبتيه.

ـ ليس هذا بوضع أسهل عليّ.. لكنه أفضل بقليل.. أحبك كثيراً يا عزيزتي.. لكن يجب أن نتكلم.. أريد أن نوضح كل سوء تفاهم بيننا قبل أن تصبحي لي تماماً.

ـ لا أصدق أنك تحبني فيك..

ـ من الأفضل أن تصدقي حبيبتي لأنك لن تستطيعي الهرب مني الآن.. فقد ذقت الأمرّين من العذاب الذي سببته لي.

ـ عذاب؟ أنت؟ ومتى بدأت تحبني؟

قال يفكر في سؤالها: «فلأتذكر...».

دفعته زاندرا في كتفه، فابتسم وقال:

ـ الواقع أن هذا لا يتطلب التفكير.. تعرفين أنك كنت دائماً تثيرين أعصابي كلما تقابلنا معاً.. وأظن أن تصرفاتي وقسوتي معك هي نوع من الدفاع الذاتي عن النفس.. أعرف أنني كدت أفقد عقلي حين جاءت عمتك وقدمت نفسها على أنها عمتي العتيدة. لكنني فكرت أن أعرف ما الذي تخططين له قبل أن أحاسبك على فعلتك.. ثم جئت راكضة إلينا في موقف السيارات، وكأنك لا تستطيعين تصديق عينيك.. ولا أدري أي تعبير أعجبني أكثر.. نظرة الرعب حين رأيتني مع السيدة سمولبورن، أم نظرة الهلع حين ظننتني سأعانقك.

سقطت كل الحواجز.. وضربته ممازحة في ضلوعه فكافأها بعناق

كان يمكن أن يطول ويطول لولا أنه كان أقوى منها، نعاد إلى ما كان يقوله وعيناه تظهران البهجة وهو ينظر إلى وجهها الجميل المتورد.

ـ أغرتني نفسي بمجاراتك في لعبتك.. لم، وقبل أن أعرف ما كان يحدث، بدأت تحوكين سحرك حولي.

لم تستطع زاندرا التصديق أن كل هذا يحدث لها.. نظرت إليه بحب: «ومتى بدأ كل هذا؟».

ـ بدأ الأمر حين أخبرتني بأمر أندرو بوغت.. لم أستطع أن أفهم لماذا أحسست بالتوتر لأنه كان يجرؤ على الطلب منك الذهاب معه لقضاء عطلة مشبوهة.

ضمها إليه.

ـ أعرف أنك كنت مستعدة للذهاب معه.. لكن سامحيني لو قلت يا حبيبتي إنك بليدة الفهم قليلاً بالنسبة للعلاقات مع الجنس الآخر، ولكنه أمر أحبه منك.

طبع قبلة على خدها.

ـ عرفت أنك مميزة حين طلبت منك الزواج بي، وما إن وصل موعد الزفاف حتى عرفت أنني سأبقيك معي إلى الأبد.

ابتسم لها مؤنباً: «ولكنك لا تثقين بي.. فقد صدقت جينا هارتلي ولا أدري ما إذا كان عليّ أن أسامحك على هذا أم لا».

تلاشت لهجة المزاح، ورأت أن شيئاً من الدفء غاب عن وجهه.

قال بلهجة صادقة أصبحت مألوفة لها:

ـ على أي حال.. تجاهلتها ووضعتها عند حدها فوراً. حين أخبرتني بأمر صدامك مع ستانلي كروس في سنغافورة.

ـ ستانلي كروس؟ لكنني...

ـ خرجت معه للعشاء.

ـ لم أكن أدري أننا سنكون بمفردنا.

تابعت تخبره كل ما حدث من البداية إلى النهاية.

ـ أنا أثق بك زاندرا.. لذا لا حاجة لتشرحي شيئاً. حسناً.. ربما أنت مضطرة، ولكنني كنت مقتنعاً في أعماقي أنك لن تحاولي العبث مع أحد ما دمت زوجتي.. ولكن لا أنكر أن تلك الرسالة التي أرسلها بوغت، وما أعقبها من قرار بإنهاء الأمور بيننا هزتني كثيراً.. المشكلة أنه كلما فكرت فيك وفي بوغت ظهرت أسوأ طباعي.. فهل تسامحينني يا حبيبتي على ما حدث؟

ـ طبعاً.. كتب لي أندرو فقط ليعتذر عن تصرفه الرهيب في حفلة ماغي..

حاولت إضافة المزيد من الشرح، فأسكتها بقبلة، وبقيا صامتين لبعض الوقت متعانقين.. مرة أخرى تراجع فيك، وكان وجه زاندرا متوهجاً حياً..

ابتسمت بخجل:

ـ لقد أحببتك منذ زمن فيك.. وأحسست بغيرة رهيبة من جولي بيفرتون.

صاح فيك مذهولاً:

ـ جولي؟ يا إلهي.. لماذا؟

ـ أعرف الآن أن لا شيء بينكما، لكن يوم التقيتها أول مرة، وجدتها تثير ضجة كبيرة حولك.

ـ حبيبتي.. أعرف جولي منذ طفولتها.. وفي يوم من الأيام وبعدما تتعب من الانطلاق، ستقول نعم لأليكس بايير.. أتذكرين أليكس؟

تذكرت زاندرا أنه كان «الأشيبن» في زفافهما، لكنها لم تشك قط أنه وجولي..

ـ تعجبك جولي؟

ـ أوه.. أجل.. ومن لا..

ـ حسناً.. لأنني أعتقدها ستأتي من وقت لآخر لرؤيتك في لينوود.

ـ لقد نسيت.. أنت عائد إلى «لينوود» في نهاية الصيف.. أليس

كذلك؟

ـ نحن عائدان حبيبتي.. لم أخطط قط للعودة بدونك.

فجأة شعرت بأن الدموع تكاد تنهمر من عينيها فكل ما حولها رائع

ـ ظننتك تريد إنهاء الزواج.. عندما تحدثت عن توليك إدارة الأملاك، خلتك تشير إلى أن الأمر لن يطول قبل أن تطلب إبطال الزواج.

تورد وجهها بشدة وهو يرد:

ـ بإمكانك نزع كل فكرة عن الإبطال من رأسك.

ابتهجت حين رمى رأسه إلى الوراء وضحك على تعابير وجهها.. وقال:

ـ في بعض الأوقات كدت تنالين فيها ما تستحقين، سيدتي الصغيرة!

لم تكن بحاجة إلى السؤال عما يعنيه وعن الأوقات التي يشير إليها..

ردت:

ـ مع ذلك، يوم أصبت بألم الأضراس، أخذتني إلى سريرك.. ولم..

ولم تتمكن من إنهاء جملتها.

ـ حبيبتي، أعرف أنك عديمة التجربة في هذا المجال.. لكن، هناك فرقاً كبيراً بين الحب والرغبة المجردة. يومذاك كنت متألمة كثيراً، ولن يستغل ألمك إلا الحيوان.. وأحمد الله لأنك لم تستيقظي إلا بعد مغادرتي السرير!

ـ لكنني استيقظت قبلك فيك.

ـ وتركت يدي تبقى حيث كانت!

ـ أنا.. أنا.. أعرف أنها لمسة بريئة.. لكن لم أكن أعرف ما سأفعل.. خلتك ستغضب إن عرفت.. وقبل أن أقرر شيئاً، استيقظت، واتضح لي أنك كنت أكثر سخطاً مني.

تمتم: «يا حبيبتي.. أنت لا تملكين فقط أجمل وجه وجسد، بل أجمل دماغ».

وكانت لحظات للذكرى، وأحست زاندرا أنها على شفير البكاء، ثم رفعها من المقعد.

ـ آه! لا أريد النزول إلى البهو مجدداً.. نعم أعرف أن الصحافيين رحلوا.. لكن لا بد من الاحتياط. أتمانعين لو طلبنا العشاء إلى هنا؟

ـ العشاء هنا أمر رائع.

ـ عظيم.

وأبعد ذراعيه عنها:

ـ سأتصل بجايمس هاتفياً.. حقيبتي معه في مكان ما.. ثم أستحم.. ثم..

مرة أخرى عاد يحتضنها، في المكان الذي تريد أن تبقى فيه دائماً:

ـ آسف حبيبتي.. لقد انتظرت طويلاً حتى أصبحت بين ذراعي بملء إرادتك.. ولا أستطيع منع نفسي من احتضانك.

توهجت عينا زاندرا وهما تردان على الحب المرسوم في عيني فليك الرماديتين.. ولتنتظر مخابرة جايمس!

***